تشكيل
TASHKEEL

مرضتٌ بلا مرض

د. أحمد بن أسامة الشويخ

للتنويه:

تـم تطبيـق مبـادئ الأمانة الطبية واحـترام خصوصية المـرضى في جميع القصـص، وتمّـت مراجعتهـا مـن قِبـل ذوي الاختصـاص واسـتبعاد ما قـد يدُل عـلى شـخصية المريض.

حُباً للقراءة
IN LOVE WITH
BOOKS
@freebooksf

سبعٌ وسبعون بالمائة.. ممّا بين طيّات هذا الكتاب؛
قصصٌ مُستوحاة من أحداثٍ حقيقية.

شتائم

وصل متأخراً إلى المستشفى، بدأ في تحضير قهوته على عجل حتى يتسنّى له الشروع في عمله، أخذ الدكتور «فيصل» معه كوب قهوته المصنوع من الورق، واتجه إلى غرفة العيادة الخاصة به عبر ممرات المستشفى العابقة برائحة «المُطهر»، وجوه المرضى، ابتسامات الأطباء والتحيات الصباحية.. كانت تُشعِره بشيءٍ من الرضى.. فإذا بأحد المُراجعين يرمقه بنظراتٍ غريبة، لا ينفك عن النظر إليه.

سأل المُمرض: هل هو أول المراجعين بالقائمة؟

أجاب: نعم.

فطلب منه أن يُدخِله على الفور.

جلس فيصل خلف مكتبه ينتظر المريض ذو النظرات المُريبة، لم تمضِ دقائق حتى دخل إليه.. ينظر بقلق من خلفِ الباب، بل كانت كل خطوة منه متبوعة بنظرات تتفحص المكان من النافذة وحتى مكتب الطبيب.

طلب «فيصل» من المريض الجلوس.. جلس متوترًا يُراقب أقدام الطبيب من تحت المكتب..

سأله الطبيب: كيف حالك اليوم؟

أجاب بانفعال شديد: ما شأنك؟ ماذا تريد مني؟

رد الطبيب: أنا موجود هنا لخدمتك، هدِّئ من روعك.. أخبرني عن سبب زيارتك؟

فتح المريض أزرار ثوبه بعنف.. أخذت أنفاسه في التصاعد.. نظر إلى الطبيب ثم صرخ به قائلاً: هل قلت لي شيئاً؟

أومأ الطبيب له برأسه مشيرًا بالنفي.. أخذ المريض يهزُّ قدميه بقلق بالغ وأخرج علبة من «السجائر» راغبًا في التدخين..

قاطعه الطبيب قائلاً: اتركها على المكتب وتوقف عن هذا.. كن معي حتى أستطيع مساعدتك. استجاب المريض له.. وضع العلبة على المكتب، وأخفض رأسه للأسفل، ثم فجأة صرخَ في الهواء وكأنه يردّ شتائمًا وُجِّهت له..

استوقفه الطبيب قائلاً: هل يوجد من يشتمك الآن؟

أجاب المريض بغضب: « نعم»!

استمر الطبيب بالسؤال عن نوع الشتائم.. فأجابه بكلماتٍ مختلفة منها -تكاد تملأ صفحة كاملة-.

فسأله الطبيب: هل تعرف من يشتمك؟

فكان جوابه: لا، لكنه ملاصق لي منذ تسع سنوات.. يلاحقني ويشتمني بلا سبب بل ويشتم أهلي.

اقترب منه الطبيب وقبل أن يشرع في سؤالٍ جديد.. نهض المريض ناهراً إيّاه وطالبًا منه ألّا يشتمه!

أخبره الطبيب أنه لم ينعت المريض بأي كلمة بذيئة، فكيف له القول بأنه يشتمه؟

اقترب الطبيب من المريض، طلب منه الهدوء.

سأله عمّا إذا كان يُحس بأن الناس أيضاً تقوم بإهانته. أجاب بـ «نعم»، وأنه كثير الغضب منهم بل أنه أراد ضربهم وإيذاءهم مراتٍ عدّة، لولا ظهور سبب ما.

سأله «الطبيب» مباشرة: عن السبب؟

قال: هناك من يراقبني في كل مكان، أشعر بأنه الآن هنا تحت المكتب بالتحديد.. يستمع إلى ما أقوله لك. ابتسم «الطبيب» وأخبره بأن لا أحد سواهما في الغرفة.

غضب «المريض» وقال: أتهزأ بي؟ إنهم هنا، أشعر بهم لكنك لن تستطيع الإحساس بوجودهم لأنهم يخافونك ويختبئون منك لكنهم لا يخشون مضايقتي.

IN LOVE WITH BOOKS

طلب منه «الطبيب» النظر أسفل المكتب للبحث عنهم وإعلامه في حال عثر على أي شخصٍ مختبئ.. ليتمكن من إمساكه معه، ففرح المريض وانقضّ بسرعة على الأرض مفتشًا عن أحدهم، طالَ بحثه ولم يجد شيئاً!

@freebooksf

نهض بعدها، عاود الجلوس على كرسيّه بوجهٍ مُحمرٍ من الخجل.. أخبر الطبيب أن الشخص المختبئ؛ هرب هذه المرة وبأنه في المرة القادمة سينال منه.

أخبره «الطبيب» أن ينسى أمر «الشخص» الذي يقوم بمراقبته وسأله هل تسمع شيئاً غير الشتائم؟

أجاب: نعم.

و أضاف أن نفس الشخص الذي يُحيطه بالشتائم يأتي بشكل شبه يومي ومستمر.. يُسهِب في تحطيمه بكلامٍ يُقلّل من عزيمته لفعل أي شيء، وهذا الأمر يُعيقه عن إنجاز الكثير، وقد بدت على وجهه علامات الإرهاق.. سأله «الطبيب» عن نومه، أخبره بأنه لا ينام من شدة خوفه لأن الصوت يأتيه غالباً عندما يُصبح وحيدًا.

عانى فيصل كثيراً مع المريض لأن استيعابه كان أبطأ من المستوى الطبيعي.. بل أنه يحتاج لإعادة شرح أبسط الأسئلة والجُمل مرّاتٍ عديدة ليتسنّى له فهمها والبدء في الإجابة عليها..

سأله عن علاقته مع أصدقائه؟ وضع رأسه على طاولة المكتب وبدأ البكاء الشديد حتى تبلّل سطح المكتب من دموعه، وبعد أن هدأ قليلاً أجاب بأنهم تخلّوا عنه، والسبب يعود طبعًا لِصفاته الغريبة وسرعة غضبه بل ومحاولاته إيذائهم مرّات متكررة، واعتقاده أن أحدهم هو من كان يشتمه، فأصبح وحيداً وكان هذا أكثر ما يخشاه.

سأله عن تعاطيه للمخدرات.. أجاب بالنفي التام بل وبغضب واضح من الطبيب، لأنه اعتبرها إهانةً له واتهاماً صريحاً. وكعادة الطبيب بعد أن أعاده لحالته الطبيعية سأله عن الأدوية التي يتناولها

فأخبره بها وأطلعهُ بأن أعراضه تزيد في حال التوقف عن تناولها، والعكس تمامًا في حال التزامه بها.

في نهاية حديثهما طلب الطبيب من المريض أن يعده بأن يلتزم بها وألاّ يُفوّت موعده القادم في العيادة. وعده بذلك وبأنه سيحاول التغاضي عن الشتائم التي تصله من الشخص -المجهول- وبأنه قدر ما يستطيع سيتجاهلها. صافح الطبيب وخرج من العيادة ونظراته الغريبة لا تكاد تُفارق وجهه المُرهَق.

جميع الحالات لذلك اليوم كانت بسيطة ولم تأخذ الوقت الكثير منه وكالعادة انتهى موعد عمله.. وخرج متجهاً إلى سيارته تلسعه الشمس الحارقة، وليخوض عبء زحام الشوارع ويصل بيته منهكًا، دخل إلى منزله.. وجدَ أمه تتابع مسلسلها «المفضل» قبّل رأسها وجلس بجوارها بعد أن خلع معطفه.. ثم سألها عن أخيه. وأجابته أنه نائم كعادته ولم يذهب لجامعته. أخبرها بعدم شعوره بالجوع، وأنه أيضًا سيلحق بأخيه في حلمه بعد قليل. ذهب إلى غرفته وبادر بتغيير ملابسه، ثم عانق وسادته وقبل أن يُباشر النوم تلقى اتصالاً من صديقه الدكتور « ناصر »، بعد السلام والسؤال عن الحال، أخبره بأنه يوّد لقاءه في أحد المطاعم في نهاية هذا الأسبوع والتحدث معه عن حالة غريبة، أجاب فيصل بأنه لا مانع لديه، لكنه تساءل في نفسه عن سبب عدم مناقشته بهذه الحالة في العمل، خصوصاً وأنهما

يعملان معاً في نفس المستشفى مع اختلاف قسميهما، واتفقا على موعدهما مساء يوم «الخميس» وبعد ذلك خلد إلى النوم بعمق.

ليس من شأنك!

في صباح الخميس، اتجه فيصل بسيارته إلى مقرّ عمله، متأخرًا عدّة دقائق، بسبب اكتظاظ الطرقات الصباحي المُعتاد عليه.. لحظة وصوله دخل مُسرعاً، قابله «الممرض» ليخبره بوجود مريضٍ عدواني في انتظارهِ عند باب العيادة، ابتسم « فيصل» قائلاً: رائع، هذا ما ينقص الصباح الجميل.. اقترب من عيادته ولمح رجلاً في الستينات من عمره.. ينتظر بغضب.. بادر الرجل فور رؤيته للطبيب بقول: لقد تأخرت ثلاث دقائق عنْ موعدك المحدد، إنه لإهمال فظيع تستحق الضرب عليه، تجاهل فيصل كلامه وبعد ابتسامةٍ لطيفةٍ منه قام بفتح الباب له وطلب منه الدخول والجلوس، ثم سأله عن أحواله وسبب مجيئه.. أجاب الرجل المُسن: « جئت لأخذ دوائي؛ ومن ثم لا علاقة لك».

إثر ذلك تعرّف « فيصل »على نوع المريض والصعوبة التي سيواجهها برفقته، فتح ملفه.. بدأ بقراءة بعض بياناته والملاحظات الخاصة به والمدوّنة داخل الأوراق بصوت مسموع.

و قال له: لا تنام جيداً؟

أجاب: لا علاقة لك!

- تشتم أهلك؟

- ليس من شأنك!

- تشعر بأن هناك من يجلس معك ويحادثك دون أن تراه؟

- نعم، ثم استدركَ نفسه «ليس من شأنك».

ثم سأله عن قصةِ رفعه لِلسلاح في وجه ابنه ومحاولتهِ قتله؟

أخذ يردّد عبارة: «الشيطان شاطر يا دكتور».

تجاوز العشرين سؤالاً.. وكانت إجاباته، لا تخرج عن «الشيطان شاطر يا دكتور» أو «ليس من شأنك».

- لم جئت إليّ ما دام مرضك ليس من شأني؟ كرر مُجدداً أنه أتى لأخذ العلاج المجاني - فقط - حيث نفذ الذي بحوزته وأنه لن يبوح بأي كلمة لفيصل، مهما حاول معه.. تمكن «فيصل» من التأكد من فاعلية الدواء مع حالته بعد اتصاله بأحد أقارب المريض والمُدوَّن رقم هاتفه في ملفّه، وأوصى الصيدلي بإعطائه بضعًا منه حسب حاجته في المُدة القادمة وودّعه بلُطف، ولكن ذلك لم يُفلح مع «المُسن» حتى أنه لم يصافح «الطبيب» قبل خروجه، بل ذهبَ غاضبًا مثلما حضر.

أنهى «فيصل» جميع ما تطلّبه هذا اليوم من حالات.. وخرج من المستشفى إلى المطعم الذي اتفق مع صديقه «ناصر» أن يلتقيا فيه.

انتظر قليلاً حتى أتى الدكتور «ناصر» متأخراً بعض الوقت مُتعذّراً بالزحام الذي لا يُطاق.. سحب الكرسي للخلف وهمّ في الجلوس عليه وجهًا لوجه مع فيصل.. بعد تناول بعضٍ من أطراف الحديث عن المشاكل التي حصلت في المستشفى مؤخرًا.. قاطعه «فيصل» بلطف متسائلاً حول الحالة الغريبة التي أراد إخباره عنها أثناء مكالمته الهاتفية قبل عدّة أيام.. وبأنه قد غلبه الفضول لمعرفة التفاصيل.. ابتسم ناصر وقال: أنه قبل يومين قد أتت إلى عيادته فتاة مع أبيها.. كانت مشكلتها هي فقدان مؤقت للذاكرة يأتي ويذهب بلا سبب وأضاف بأنها قبل ذلك كانت طبيعية جدًا وغير متقلّبة المزاج وأثناء وجودها في العيادة كان واضحًا جداً عليها أن والدها أرغمها على مرافقته للكشف.

بعد إصغاء طويل، سأل «فيصل» عن الدور الذي قد يُفيد به هذه الحالة؟

جاء رد «ناصر» برغبته في تحويلها إلى عيادة «فيصل» ليؤكد له ما إذا كانت حالتها تحتاج لعلاجٍ نفسي أم لا؟ لم يتردد فيصل بالموافقة وأخبره فورًا بالبدء في إجراءاته لتحويلها إلى العيادة الخاصة به يوم الخميس القادم ومن ثم شكره «ناصر».. وأكملا طعام العشاء وافترقا من بعدها.

IN LOVE WITH BOOKS
@freebooksf

بعد عودة « فيصل » لِمنزله لمح نورًا من غرفةِ أخيه «رائد».. طرق الباب عدّة طرقاتٍ ثم دخل.. ووجده يقرأ بعض الكتب والمجلّات الطبية.. ضحك «فيصل» وقال: « كعادتك تأخذ كتبي من غرفتي دون إذنٍ مني، ثم لَماذا تقرأها مع أنها لا تتعلق بتخصص دراستك مُطلقاً ».

أجاب «رائد» بأنه يهوى القراءة عن كل ما يتعلق بعلم الأورام ومُستجداتها، والبحث في الانترنت عن كل الأورام الجديدة والغريبة، وأنه بدأ الاهتمام بها بعد أن وافت أباه المنيّة قبل سنوات إثر إصابته بسرطان الرئة.. نهض «فيصل» وأمسك بأحد كتب الهندسة التي يدرسها «رائد» ورماه نحوه.. مُمازحًا إياه: «ركز على دراستك وارفع مُعدلكَ المُتدني بدلاً من قراءة الكتب الطبية».. ثم أطفأ إضاءة الغرفة وخرج راكضًا وهو يضحك.

في صباح الأحد أرسل الدكتور «ناصر» ملف الفتاة التي ذكرَ حالتها له في المطعم.. قرأه على مهل حيث لم يجد فيه معلومات وفيرة، سوى ما ذكره له قبل أيام.. اتصل به فور إغلاقه الملف، لتذكيره في تحويلها لعيادته يوم الخميس.

جاء يوم الخميس الذي انتظره الدكتور فيصل ليرى تلك الحالة، ومن شدّة فضوله أتى باكرًا، لكنها لم تجيء في موعدها المُحدد.. طال انتظارها، مرّت «نصف» ساعة.. لم تأتِ، طلب من الممرض إدخال المُراجع التالي.. وباشر الاتصال بالدكتور «ناصر» أخبره فيه أنها لم تأتِ للموعد.. فأجابه بتوقّع حدوث ذلك لأنها أتت للعيادة - مُجبرة - في المرة السابقة.

خائف

بعد دقائق قليلة طرق الباب رجل طاعنٌ في السن، قد احدودبَ ظهره وامتلأ شعر لحيته بياضًا طغى على بياض ثوبه الذي يرتديه والتي وصل طولُها لمنتصف بطنه، رحّب به «فيصل».. وطلب منه الجلوس بلُطف؛ فجلس صامتًا ولم ينطق بحرف.. سأله «فيصل» عن سبب سكوته؟ أجاب بأنه لا يريد التكلم حتى لا تزيد ذنوبه، طلب منه «فيصل» توضيحًا لعبارته!!، قال «أنه يشعر بخوفٍ شديد من أن تتزايد ذنوبه ففضّل السكوت عن الحديث»، مما أثارَ استغراب «فيصل»: لِمَ تخاف من زيادة ذنوبك بهذا الشكل؟

أجاب لأنني أُحس بالموت يُحيطني من كل الجهات وهذا ما يصيبني بالهلع والقلق!، سأله «فيصل» عن الأعراض التي يشعر بها؟!

أجاب: بأنه منذ عدّة أشهر شعَرَ بِالخوف المبالغ فيه من يوم القيامة وأهوالها وما سيلاقيه يومها وبمجرد التفكير يُصاب بدوارٍ شديد لا يقوى على الوقوف بسببه ويزداد تعرّقه كلما أطال تخيله.

سأله «فيصل» عن أعراض أخرى؟ أجاب أنه يُخطئ الاتجاهات حتى أصبح لا يُميز بين اليمين واليسار وأن هذا الشيء يُثير امتعاضه.

أراد «فيصـل» التجربة، مُشـيرًا إلى يد المُسـن اليمنى «هـل هذه اليمنى أم اليـسرى؟».. فكـر لبرهـة مـن الزمـن ثـم أجـاب: «اليُمنـى». فـرح «فيصـل» وابتسـم ابتسـامة غـير مكتملـة.. حتـى عارض المُسـن نفسـه مُسرعـاً، قائـلاً «لا لا لقد أخطأت هـذه اليُسرى، أعتذر منـك فأنا كثيرًا مـا أُخطئ».. تحـوّل وجـه «فيصل» المتبسـم إلى علامة تعجـب كبيرة!!.

شَرعَ «فيصـل» في توضيـح الفـرق بـين اليـد اليُمنـى واليُـسرى لـه.. وأخـبره بـأن إجابتـه الصحيحـة هـي الأولى وأن تعديلـه لإجابتـه كان خطـأ.. وبـدأ «المُسـن» بشـكره..

سـأل «فيصـل» عـن سـبب مجيئـه هـذه المـرة بالتحديـد ومـا التغير أو التطـور الـذي طـرأ عـلى حالتـه حتـى أتـى إلى العيادة؟

أجـاب بـأن الأسـبوع الأخـير كان مُختلفـاً بالنسـبة لـه.. حيـث تبـدأ الرهبـة عنـده أثنـاء دخولـه المسـجد.. يمـلأ العرق جسـده مـن الخوف وتبـدأ قدمـاه بالرجف ومـا أن يُكـبّر تكبيرة الاحـرام حتـى يتذكر «يوم القيامـة » ويشـعر بضيق شـديد لا يتوقف حتى يُسـقطه مغشـياً عليه من هـول التخيـل، حصـل هذا معه مـراتٍ عـدّة وجماعة من الذيـن يصلون في مسـجده يوقظونـه وبعدهـا يخبرونـه أن جسـده كان شـديد الحـرارة بشـكل واضـح وقـد بلّلـه العـرق وكان يُكرّر بعـد كل جملـة تقريبًا قوله «أن المـوت قـد اقـترب منه وأنـه قـد حاصرته مخاوفـه منه»

جلس «فيصل» على الكرسي المقابل له وأخبره مما يُعاني! مُضيفًا «أن القلق الزائد لا ينفع بل يزيد الأمر سوءً» وأضاف مُطمئنًا، أنه سيُعطيه علاجًا يُفيده ويُخفف من قلقه الزائد. فرِح المُسن وأهطل «فيصل» بالدعوات الجميلة.. ثم نهض من مكانه وأخذ ورقة الدواء وعندما فتح الباب للخروج.. ذكر فيصل بأنه سيقوم بإعطائه ورقة تحويل لزيارة طبيب الأعصاب كيْ يطمئن على حالته بخصوص عدم تمييزه الجهات، من ثمّ طلب منه «الطبيب» أن يرفع يده اليُمنى ليريه إياها، وليتأكد من أن شرحه كان مُثمرًا، وأن وقته لم يذهب سدى، رفع يده اليسرى ومن ثم أنزلها ورفع اليُمنى وهو يضحك قائلاً «لفيصل» لقد كُنت أمازحك يا دكتور.. لن أخطئ مرة أخرى.. ضحك «فيصل» معه، وأعطاه ورقة التحويل مودعاً له وطلب من الممرض أن يُدخل المراجع التالي.. واستمرّ في استقبال مرضاه.. حتى انتهى يومه دون أن تأتي «الفتاة المُنتظرة».

وفي يوم الثلاثاء.. ذهب «فيصل» إلى مكتب الدكتور «ناصر» وسأله عن أي جديد يخص الفتاة؟ أجابه أنها في المرة السابقة قد رفضت القدوم، وأنه عاود الاتصال بأبيها بعد عدم قدومها واستطاع إقناعها بزيارة المستشفى يوم الخميس، ابتسم «فيصل» ابتسامة رضا وشكر الدكتور «ناصر».

الخميس المُنتظر

جاء يـوم الخميس المنتظر حيـث بدأت عيادته بالجـدول المُقرّر.. دخل إليهـا وسـأل المُمرضـة عـن الحـالات المجدولـة لليـوم.. توافـد المرضى عـلى العيـادة بالتتابـع.. حتـى دخلـت فتـاة في منتصـف العشرينات من عمرهـا مع بـاب العيـادة بعـد طرقها إياه والسماح لهـا بالدخـول، كان برفقتهـا والدهـا.. طلـب منهـما «فيصـل» التفضـل بالجلـوس مـن غير النظـر إليهما أثناء اسـتغراقه في ملء بعـض الأوراق المهمة.. سـأل الفتاة عـن اسـمها وكامـل تركيـز عينيّـه في الاسـتمارات الطبيـة أمامـه، حتـى أجابتـه بـ« ضَيْ».

بعـد أن سـمع الاسـم رفـع رأسـه مبـاشرة فَـرأى وجهـاً يليـق بـهِ الاسـم.. تملـك وجهًـا جميـلاً لِلحد الـذي جعل «فيصـل» يُطيـل النظر إليـه دون وعـي منـه خارجًا عـن حدود مكانتـه كطبيب.. حتـى قاطعته بنـبرة قويـة ومعاتبـة قائلـة: «هـل أتيـت إلى عيادتـك لغـرض التحديق بي؟»

اعتـذر «فيصـل» على عجـل.. فتـح أحـد أدراج مكتبه ليُخـرج الملف الـذي أعطـاه لـه الدكتـور «ناصر» حتـى يتأكـد أنها الفتـاة ذاتها، سـألها عـن اسـم الأب والعائلـة.. توافقـت الأسـماء واتضـح لـه بأنهـا الحالـة التـي تـم تحويلهـا إليه مـن عيـادة «ناصر».

رحّب بها من جديد وبدأ بالسؤال.. «عن سبب زيارتها». أجابت بلا سبب سوى الظنون التي يظنها والدها بشأنها، من فقدان مؤقت للذاكرة إلى اضطراب واختلاف ببعض التصرفات في شخصيتها، وأنها لم ترغب في القدوم أبداً لأنها لا تَعُدّ نفسها مريضة. سألها «فيصل» عن سبب رفضها المجيء لِعيادته الأسبوع الماضي، أجابت بأنه يُعالج (المجانين) وأنها ليست مجنونة بعد لِتزوره. ابتسم وأخبرها أن «المرض النفسي» ليس جنونًا وأنه يُعتبر مرضاً يُصيب أي إنسان كما هي الأمراض العضوية الأخرى، أطبقت شفتيها الصغيرتين وصمتت بعد كلامه.

سألها أسئلة عدّة فيما يخص التركيز والذاكرة، وكانت إجاباتها طبيعية جداً ولم يعثر على أي مشكلة، بل أن ذاكرتها.. كانت جيدة كأي ذاكرة طبيعية.

ثم سألها عن مزاجها في الفترة الأخيرة؟، أجابته: «مُتقلّب». سألها حول تفكيرها بالانتحار. ابتسمت ابتسامة لطيفة جعلت فيصل ينسى ما سأل عنه، بعد أن أجابته أخبرته أنها ليست مجنونة كيْ تُفكر بأمرٍ مثل هذا، اعتذر منها على الفور وطلب منها أن تُكرّر عليه سؤاله لها؟

نظرت إليه بنظرة ساخرة وقالت: «يبدو أنني لستُ الوحيدة التي تفقد الذاكرة - مؤقتاً - في هذه الغرفة».

لم يـرُد «فيصـل» عليهـا؛ بـل طلـب منهـا أن تغـادر الغرفة لمـدة دقائق قصـيرة ليتحـدث مـع أبيهـا عـلى انفـراد.. وافقـت عـلى الفـور وأثنـاء خروجهـا قالـت لـه أمـام والدهـا ألا يُصـدّق كل ما سـيخبره إيـاه وأن باسـتطاعتها الإجابـة عـلى جميـع أسـئلته لاحقـاً.. لأنهـا بـدأت تشـعر بصداعٍ شـديد.. شـكرها عـلى تعاونها وخرجـت مغلقةً البـاب خلفها.

سأل فيصل والدها عن حالتها؟

أجـاب أنهـا كانـت مثـل الـوردة إلى أن توفـت «والدتهـا» قبـل عامين جـرّاء أحـد الأورام.. خصوصًـا وأنهـا ابنتهـا الوحيـدة.. حتـى بـدأت الأعـراض تظهـر عليهـا ومـن أبرزهـا تغـيّر واضـحٌ في شـخصيتها، لقـد خـسرت الكثـير مـن صديقاتهـا، وتوقفـت عـن أعمالهـا التطوعيـة والتـي مـن ضمنهـا زيـارة الأطفـال المُصابـين «بمـرض السرطـان» أسـبوعيًا مُصطحبـةً لهـم الهدايـا، إنـما كانـت مـن خلـف ضحكاتهـم تصنـع سـعادتها، حتى أصابها هـذا التغـيّر وتوقفت عن الذهـاب إليهم وتحولـت إلى إنسـانة أخـرى؛ صـارت حـادة الطبـاع كـما تـرى.

قال فيصل: «ما قصة فقدان الذاكرة المؤقت؟».

أجـاب الأب: «منـذ عـام تقريبًـا، أصبحـت تنسـى بعـض مواعيدها المهمة، اسـم «والدتهـا»، وكذلك حقائبهـا وهاتفها النقـال، وأيضًا عدة أشـخاص مُقرّبـين منها.. وانتهى بها المطاف قبل ثلاثة أسـابيع بنسـيان

من «أنا» وماذا أكون لها.. - التقيت بها في المطبخ فبادرتني السؤال «من أنت؟ وجهك مألوف لي لكن لا أذكر من تكون؟»

من هنا قرّر الأب اصطحابها للمستشفى على الفور، لحرصه على سلامتها رغمًا عن رفضها الشديد.

قال الدكتور «فيصل» بأن اجتماع هذه الأعراض معًا يبدو غريبًا له وغير مألوف، لكنه سيحرص على إيجاد التشخيص المناسب لحالتها قبل أن يصرف لها أي دواء قد يضرها أكثر من أن ينفعها.

طلب فيصل من الأب حجز موعدٍ لـ «ضيْ» يوم الخميس القادم، وأطلعه على رغبته في الجلوس معها بشكل منفرد حتى تتحدث معه براحة أكبر، ولتُخبره بما لم يطّلِع عليه «الأب» منها.. وافق الأب فورًا، مُرددًا أنه سيفعل كل شيء ليطمئن عليها، ثم استأذن الطبيب لأخذ رقم هاتفه -الخاص- للتواصل معه عند الضرورة، رحّب «فيصل» بالفكرة.. صافحه الأب بحرارة.. شكره ثم غادر.

جلس فيصل في حيرةٍ من أمره.. لم يسبق له خلال سنوات عمله القصيرة أن واجه حالة مشابهة لهذه، بين تفكيره في فقدان الذاكرة إلى الصداع الشديد يقطع ذلك تغيّر شخصيتها الكبير وحدّة طباعها.

في يـوم «الأحـد».. أراد «فيصـل» المـرور إلى عيـادة الدكتـور «ناصر» ليُخـبره عـمّا حـدث، وأطلعه على الحـيرة التي تحـاصره وصعوبـة الحالة التـي أحالهـا إليـه.. لكنه في انتظـار الزيـارة القادمة لها حتـى يضع بعض النقـاط على الحـروف ولتكتمل الصـورة التي لم يتسـنّى له رؤيـة معالمها بوضـوح.. رد الدكتـور «نـاصر».. بأنـه يثـق بـه ولـولا ذلـك لمـا أحال الملـف إليـه بالتحديد!

جـاء «الخميـس» الذي يشـغف إليـه «فيصـل»، بـدأ كسـائر أيامه من زحـام الطريـق إلى كـوب القهـوة المعتـاد إلى العيـادة، حامـلاً في صـدره بهجـةً تركتهـا فيـه دعـوات والدتـه الصباحيـة التـي تختـم بهـا طعـام الإفطـار.. بعـد برهةٍ من الزمن استمر المـرضى في الدخـول لديه.. على التـوالي حتـى أتـى «الضيْ».

دخلـت «ضيْ» برفقـة والدهـا.. كان «فيصـل» قـد اسـتعد بحـماس لقدومهـا، بعـد الترحيـب بهما سـأل عـن حالتهـا؛ وأجابته أنهـا لا تُعاني مـن أيّ مشـاكل ووضعهـا طبيعـي جـدًا.. حينهـا طلـب «فيصـل» من «الأب» المغـادرة لبعـض الوقـت.. اسـتجاب «الأب» عـلى الفـور.. طلـب مـن «ابنتـه» أن تـترك الطبـع الحـاد وأن تتعامل بِـ«ليونـة» أثناء غيابـه.. وعدتـه بالمحاولـة ثـم خـرج مشـحونًا بالقلق.

نظـر «فيصـل» إلى «ضيْ».. سـألها عـن أحوالهـا، أجابتـه: «هـل مـن الـضروري أن تسـأل السـؤال مرتـين حتـى أُجيـب عليـه».

قبل أن يرد عليها باغتته، قائلة « لماذا أنتَ الوحيد - هنا - المسموح له بالسؤال؟ بما أنني المريضة كما تزعمون.. يجب أن أشعر بالرضا والراحة حتى أجيب على أسئلة «الطبيب» الذي لا أعرف عنه شيئًا».

أجابها بـ «لا حاجة لكِ لمعرفة خصوصيات الطبيب».. وأوضح لها بأن أسئلته - الموجهة إليها - لغرض الوصول للتشخيص السليم.

قالت «أعلم ولكن قبل أن تسألني، أرغب في استفسار صغير».. ابتسم موافقًا.. وليتسنى له أن يكون معها على وفاق يتمكن من خلاله الحصول على المعلومات التي يحتاجها بسهولة أكبر.

قالت: ما اسمك؟

- فيصل!

كم عمرك؟

- ثلاثون عاماً.

- ليس واضحًا عليك أنك تكبرني بست سنوات فقط! لا أظنك طبيباً مُميزاً كثيراً، لدي شكوك حول إن كنت متفوقاً خلال دراستك!

- نعم كان ترتيبي بين زملائي في دفعتي (السابع عشر).

رائع؛ السابع عشر ترتيب جيد.

رد ضاحكاً..

- نعم يبدو (رائعًا) عندما لا أخبرك أن عدد طلاب دفعتي كان فقط «ثمانية عشر» طالباً.

بدأت تضحك بشدة.. وقالت : «يبدو أن إحساسي لم يكن خائبًا، هل تعلم أنا لا أحب الطلبة المتفوقين كثيرًا الذين يلازمون كتبهم في كل حين كالآلات».

أضافت سؤالاً آخر يخص والد فيصل، إن كان قلقًا بشكل مبالغ فيه كأبيها؟

- « لقد توفي قبل سنوات طويلة بعد مُعاناة مع مرض السرطان».

بادرت بالاعتذار.. ثم بدأت في إخباره عن حُبها وتضامنها مع أي شخص يُصاب بهذا المرض، ومعرفتها للعديد من الصديقات ممن تعافين منه، وأنه يُبهرها ثباتهن ومحاربتهن له وتغلبهن عليه.

وأوضحت له أنها ترى خوف الناس منه مُبالغاً فيه وأن بإمكان المُصابين به الصمود والثبات حتى هزيمته.

بينما يستمع فيصل لحديثها كان سعيدًا لشعوره بنجاحه للوصول إلى نقطة التقاء معها ودفعها للحديث بأريحية كما أراد.

@freebooksf

انتظر فيصل حتى انتهاء حديثها، ليُبادرها قائلاً: «هل حان دوري للسؤال الآن؟»

قالـت: «لا، بل سـأُخبرك بـما تُريـده، دون أن تتعنّى السـؤال، أجل.. كلام (أبي) صحيـح وقلقـه مُـبرّر.. بـدأ معـي ألم شـديد في الـرأس منذ سـنوات مسـتمرًا في التزايـد.. حتـى أصبـح «الصـداع» يحرمني النوم، ولم تُجـدي نفعًـا معه الأدوية المُسـكّنة مُطلقـاً بل بدأت أشـعر بالاكتئاب قليلاً .

وأكملـت أنهـا تشـعر بنسـيانها لعدّة أمـور مهمة، وقبل شـهر نسيت النـار موقـدة أثنـاء طبخهـا كاد بسـببه أن يحـترق المنـزل.. وإنـه لأمرٌ غريـب جـداً يؤكـد بأنه بنسـيان ليـس بالطبيعـي ولم تـرَ أو تسـمع بمرءٍ ينسـى أحداثًا مُعينة لا يسـتطيع بسـببها التعرف على بعض الأشـخاص لبرهـةٍ مـن الزمان قـد تصـل إلى نصف سـاعة.

سـألها.. عـن صديقاتهـا ؟ أجابـت.. بـأن تغـيّر طباعها معهن تسـبب في نفورهـن بعـد أن كُـنّ قريبـات منهـا، وأنّ نسـيانها المتكرر لأسـمائهن وبعـض مواعيدهـا المُحـددة معهـن أدّى إلى القطيعـة بينهـن.. حيـث لم يُصدّقـن بـأن مـا تُعـاني منـه قـد يكـون مرضـاً حقيقيـاً بل كان حسب ظنونهـن أنـه مُجـرد تمثيـل منهـا لتتهرب مـن الجلـوس معهن.

سـألها.. عـن سـبب إصرارهـا على الإنـكار في الأسـبوع المـاضي أثناء تواجـد والدها؟

أجابـت.. أنهـا لم ترغـب في زيادة قلقـه عليها.. ظنّـاً منهـا أن إنكارها قـد يُريحـه قليـلاً! وأخبرته أنها شـعرت منـه بأنّه مهتـمٌ في حالتهـا عندما أخـرج الملـف مـن درج المكتـب في المـرّة السـابقة، حيـث أخبرتـه أن

استعداده وانتظاره لها كان واضحاً عليه جداً. ابتسم «فيصل» لما بان عليها من ذكاء ودقة في الملاحظة.

ثم أخبرها أنه يحتاج لبعض الوقت للوصول إلى التشخيص المُناسب لحالتها، وشكرها على تعاونها معه وإجاباتها الصريحة في هذه الزيارة.. ردّت بأنها هي من عليها أن يشكره لأنه جعلها تتحدث إليه عن حالتها، وصبره على طباعها الحادّة، وودعته وخرجت مُبتسمة ابتسامة توحي له برضاها عن الزيارة. ثم أخبر أباها أن يحجز موعداً لها بعد أسبوعين.. استجاب «الأب» لذلك ثم شكره ورحل خلف ابنته.

أخذ التفكير «فيصل».. لجمع الأعراض التي لاحظها على «ضَيْ».. في سبيل المُحاولة لإيجاد التشخيص الأمثل الذي يجمعها كلها تحت عباءته وأعدّ قائمة بالتشخيصات المُحتملة وكان من ضمنها الاكتئاب.

بعد انتهاء موعد عيادته رجع إلى منزله مُنهكاً ولم يجد أحدًا بداخله، خلد إلى النوم بعمقٍ لم يستيقظ منه إلا صباح يوم الجمعة التالي، خرج من غرفته.. وجد أمه في غرفة المعيشة، قَبل رأسها، جلس بجوارها يسألها عن أحوالها و عن دراسة أخيه «رائد» التي لم يعُد مستواه فيها مُقنعاً بالنسبة له، رغم نصائحه الكثيرة له في هذا الخصوص ووعدته

أن «رائـد» يحـاول أن يُحسّـن من نفسـه في الفترة الأخيرة و بأنها ستعمل على ذلك.

عـلى الصعيـد الآخـر في منـزل « ضَيْ » كانـت قـد اسـتيقظت بمزاجٍ حسـن، بـدأت في تحضير الفطـور لوالدهـا الذي بـدا فرِحًـا.. وأخبرها أنـه لـو كان يعلـم بأنها ستتحسّـن بهـذه السرعـة وترجع لسـابق عهدها لمـا تأخـر دقيقة واحـدة باصطحابها إلى المستشـفى للعـلاج.. أخبرته بأن «الطبيـب» لم يعالجهـا بعـد لكنهـا كانت تحتـاج إلى من تصارحـه وتُخبره وتتوقـع في نهايـة الأمـر أن يسـاعدها نظـرًا لخبرتـه في هـذا المجـال.. رد «والدهـا » أنـه لا يهتـم في طريقـة الطبيـب ولا لأي شيء آخـر في هذه الحيـاة سـوى رؤية ابنته بحـال أفضل كما في السـابق.. ابتسـمت وقبّلت رأس والدهـا.

« يوم الأحد »..

ذهـب فيصـل بنشـاط إلى القسـم الخـاص بـه.. حـضر الاجتماع الصباحـي للأطبـاء لمناقشـة الحـالات.. ومـضى الاجتماع سريعـاً وحين خـرج أخبرتـه الممرضـة أن أحـد المـرضى الذين قـد تم تنويمهـم أصبح يُريـد الخروج بشـدة أكثـر من ذي قبـل.. وبشـكلٍ لا ينقطـع يعمل على إزعـاج الممرضـين الذين يعملون هناك، والمشـكلة أن الطبيب المسؤول عـن حالـة هـذا المريـض في إجـازة هـذه الأيـام. قـال «فيصـل» أنه

سيذهب بنفسه لغرفة المريض ليرى ما يُمكنه فعله.

أنهى فيصل فطوره ثم اتجه إلى قسم التنويم، القسم الذي يُسمّيه البعض بالعنبر حيث تُحتجز فيه أي حالة يصعب إخراجها، نالمها مع الحياة الطبيعية، الحالات التي تُسبب خطورة على نفسها مثل «الانتحار» وغيره، وقد تُلحق الضرر بعائلاتها ومجتمعها لعدم علمها بفداحة ما قد تفعله، وبسبب إيمان بعض الحالات بأنهم يفعلون الصواب لسببٍ ما، وتفسيرها الغريب للإنسان الطبيعي، تم توزيع الحالات في العنابر بشكل دقيق ووضعهم تحت مراقبة الممرضين والعاملين عن طريق الكاميرات التي ترصد تحركاتهم في حال تعريض أحدهم نفسه للخطورة.. وتتميّز العنابر بشكل عام بعد المراقبة بعدم وجود أدوات يُمكن استعمالها لإيذاء النفس، ويتم التأكد من ذلك بشكل دوري لسلامة المرضى.

دخل «فيصل» العنبر بعد أن فُتح له الباب الحديدي الرئيسي للقسم من قِبل الحارس، أخذ يمشي بين المرضى الهائمين الذين يتجولون في الممرّات باللبس الموحّد الذي يُعطى لهم من قِبل إدارة التنويم، جاء المُمرض «فهد» لاستقباله عند المدخل ورحّب به.. أخبره بأنه أتى لرؤية المريض الذي سبب إزعاجًا لهم.. فأخبره أنه بالفعل على الرغم من هدوئه الدائم إلا أنه في اليومين الأخيرين لا

ينفك عن طلب الخروج منهم، بل أصبح يُسبّب لهم صداعًا مُزمناً.. اضطروا بسببه إلى استدعاء الطبيب «فيصل» ليجد حلاً أو طريقة لإقناعه بالسكوت والتوقف عن طلبه.. أخبره « فيصل» بأن هذا ما سيحدث بإذن الله، وفي طريقهما أخذ فيصل ينظر حوله ليرى المريض الذي يحاول تسلّق الجدار بيديّه المُجردتين، وآخر واقفًا بكل ذهول يُحدّق في الكاميرة المعلّقة بالأعلى.. أخبره «فهد» أن هذا المريض يقف بالساعات بشكل متواصل بلا راحة يُراقب هذه الكاميرة بلا سبب ولا هدف، ولا يتحرك من أمامها إلا في وقت تناول الطعام أو النوم، وأنه يتبوّل على نفسه أثناء وقوفه بلا إحساس منه بذلك، وأصبح هذا الشيء معتاداً عليه لدى العاملين هنا.

أكملا سيرهما بين العديد من الحالات على اليمين والشمال، هناك من يجلس في الزاوية ويضحك بشكل هستيري، ومن يقف ليُسلّم على جميع من يَمُر بلا استثناء، وأثناء مرور» فيصل وفهد « بادر بالسلام على «فيصل» وبالمديح اللا مُنقطع وحاول تقبيل رأسه بشدّة رغم مقاومة فيصل له.. استمرّا بالمشي وإذ بأحد المرضى يبكي بغرابة، سأل «فيصل» ما به؟ أجاب «فهد» أن هذه طبيعته منذ أشهر، تارة يبكي وأخرى يتأمل الجدار دون انقطاع.

وصلا إلى الغرفة التي يُقابل فيها الطبيب مرضاه داخل العنبر وطلب من «فهد» أن يُحضر المريض الذي أتى من أجله إليه.. جلس على الكرسي، خرج «فهد» تاركًا الباب مفتوحاً، وبعد دقيقة من وقت خروجه دخل أحد المرضى والذي حين تراه للوهلة الأولى ستظُن أنه جاء ليضربك، ويرجع ذلك لِحدّة نظراته والغضب البادي على وجهه الممتلئ بآثارِ لجروحِ قديمة، دخل بخطوات بطيئة متجهاً لفيصل، جامعًا يديه ببعضهما بشكل يجعلك تظُن أنه مُعتقل وأنّ هناك ما يُقيّده، اقترب من «فيصل» ووضعهما بالقرب منه دون أن يُبعدهما عن بعضهما وبدأ في إخراج صوتٍ أشبه بالفحيح، لم يفهم «فيصل» ماذا يُريد منه.. أخبره أن يتكلم ليستطيع مساعدته، ردّ بفحيحٍ أقوى من سابقه، قال «فيصل»: هل تُريد أن أُحرّرك من القيد الذي يُطوّق يديك؟ أومأ المريض الغاضب إيماءةً برأسه بالقبول.. بدأ «فيصل» في التمثيل بأنه يبحث عن مفتاح القيود في جيبه حتى عثر عليه.. أخرجه وقد أمسك في الحقيقة بالهواء بين أُصبعيه.. طلب من المريض أن يخفض يديّه نحوه.. فعل، حاول مُدّعيًا فتح القيود وأشار إليه بأنه قد تم إزالة القيود وأنه الآن يُمسكها بيده.. ابتسم المريض ذو الملامح الغاضبة ابتسامة بدت لطيفة واقترب مُقَبِّلاً رأس «فيصل»، وخرج ويداه مُنفصلتان، سعيداً بتحرير نفسه من القيد الوهمي الذي يبدو عائقًا لحركته منذ وقت طويل..

إخوة يوسف

خرج المريض ذو القيود.. بعدها قام فيصل بفتح ملف المريض الذي أتى من أجله، وبدأ في قراءة المعلومات المُدونّة بهِ ليتسنّى له عن طريقها مساعدته.. لم تمضي دقائق إلاّ وأتى المريض المنشود من العنبر برفقة فهد، باشر فيصل مصافحته وطلب منه الجلوس وأمر فهد بلطفٍ الخروج وإغلاق الباب.

أمام المريض -الذي لم ينطق بحرف-، جلس «فيصل» عدة دقائق.

خرج المريض عن صمته مستهلاً بالضحك المستمر في ارتفاع الصوت والنبرة حتى أصبح يضحك بطريقة مزعجة ولا تطاق..

لم يحتمل «فيصل» المزيد، طلب منه التوقف؛ سأله: «ما الذي يدفعك للضحك؟».. ولم يتلقى إجابة.

فجأة وبعد صمتٍ طويل سألَ «المريض» «الطبيب فيصل»:

هل أنا مجنون؟

فيصل: لا!

- إذًا أخرجني الآن من هنا!

فيصل: هناك العديد من الاجراءات التي لا بُد من القيام بها قبل الخروج، هل أنت مُستعد لها؟

ضحك المريض ثم أجاب: «نعم».

بـدأ «فيصل» في سـؤالهِ الأسـئلة المُعتادة، مثل « اسـمه وعمره وعائلته وحالتـه الاجتماعيـة». وكان يملـك عـدداً لا بـأس بـه مـن الإجابـات المتنوعـة والمثـيرة للغرابـة.. أجـاب بأنـه في «منتصـف الثلاثينـات» من العمـر، وأن أمـه «عـلى قيـد الحيـاة» مصرحًا بـأن عمرهـا الآن «أربعون عاماً».

سأل فيصل: هل فارق العمر بينكما «خمسة أعوام فقط!!»؟

اقـترب «المريـض» وكأنـما يرغـب في إخبـار «الطبيـب» شـيئًا خاصًا، قائـلاً «إنـه مـن أهـم أسرار عائلتنا».. ابتسـم «فيصل» فتـح الملف الذي بـين يديّـه ليتضح لـه أن والدة المريض قد تجاوزت سـن «السـتين» وأنها قـد توفيـت منذ عـدّة سـنوات، وعلى إثـره عـرف فيصل حالـة المريض بالتحديد وأغلـق الملف.

سأله فيصل: ما السبب في دخولك إلى المستشفى؟

أجـاب: «إنهـم يظنـون أنني مجنـون بينما أنـا معـافى تمامًـا».. وأضاف مؤكـدًا أن تشـخيصهم لـه كان خاطئًا.

ردّ فيصـل: « حسـنًا؛ بـما أنـك سـليم لماذا قمـت بكسر زجـاج الإنارة في منزلكم؟».

صمت قليلاً.. ثم سأل فيصل: «كيف عرفت؟»

أوضـح لـه بأنـه قـرأ ملفـه وعـرف الكثـير عنـه، طالبًـا منـه التعاون ليستطيع مسـاعدته.

استغرق «المريض» في التفكير ثم بدأ الضحك -الهستيري- من جديد.. مُجيبًا أن زجاجات الإنارة قد وُضِعت لمراقبته وتتبّع تحركاته.

سأله «فيصل»: من المستفيد من مراقبتك؟

- إخوة يوسف عليه السلام!

قام «فيصل» بتكرار السؤال مرة أخرى وبطريقةٍ أكثر جدية؟ فتكرّرت الإجابة نفسها.

سأل «فيصل»: لماذا أنتَ بالتحديد؟

سكتَ «المريض» لوهلة، ثم قال: «هل يمكنني مصارحتك على شرط ألاّ تبوح بالسر لأحد وألاّ تضيف حديثي هذا إلى الملف؟».. ومن غير تردد أعطاه فيصل وعدًا قاطعاً.

اقترب (لِأُذن) فيصل هامسًا بها «أنا يوسف».. «ولا أريد أن يعلم أحد عنّي، لدي خطط كثيرة.. أخشى فشلها وتعرضي للأذى من بعدها».

تعجّب «فيصل» لكنّه أوضح للمريض أنه قد صدّقه، واستغل الفرصة لسؤاله عمّا فعله على سطح منزله قبل عامين؟

أجاب «المريض» أنه لا يخجل ممّا فعله، و أنه اتجه إلى سطح المنزل وخلع ملابسه حتى أصبح كما ولدته أمه -عاريًا تمامًا- ثم باشر في الصلاة وقد وضع حجرًا أمامه.

سأل «فيصل» عن الحجارة؟ أخبره أنه «حجر مُقدس» ليوسف

عليه السلام، وفي الحقيقة عند رجوع «فيصل» إلى ملف «المريض» اتضح أنه قد التقطه من الشارع ثم قام بتنظيفه والاهتمام به.

ثم سأله: «ماذا عن صلاتك عاريًا؟»..

أجاب: «طقوس مقدسة ولا أستطيع التحدث عنها لشدة خصوصيتها».. يَعتقدُ أنه يعيش أحداث قصة «يوسف عليه السلام»، التي ذكرت في القرآن، ويرى حسب تصوره أن فترة وجوده واحتجازه في «المصحة النفسية» أشبه بكونها في السجن الذي وُضِع فيه يوسف عليه السلام، وأن الأسباب ترجع لإخوةِ «يوسف» بعد أن قاموا بمراقبته لفترات طويلة.. دبروا له على إثرها المكائد حتى انتهى به المطاف هنا.. وفيما يخص طلبه الخروج من العنبر إلى الحياة الطبيعية يرى أنه قد آن الوقت ليحكم «مصر» كما فعل يوسف عليه السلام، وأن العلامات التي بحوزته تشير بأنه حان الوقت المناسب لذلك.. وأن براءته ستأتي لا محالة وأن النبوة قد أورثته هذا اليقين.

سأل «فيصل»: من قال إنك متهم لِتنتظر براءتك؟

رد متسائلاً من جديد: هل أنا مجنون كما يزعمون؟

أجاب «فيصل»: أن الحالة التي أصابته كانت بسبب إهماله للعلاج لفترات طويلة حتى بعد تنويمه.. كما نص في الملف الخاص به «المريض يسهر كثيراً ويصوم لأيام ولا يتناول الأدوية مما أدى إلى تفاقم حالته.. وبعض الأحيان يقوم بالتحايل والتمثيل فيما يخص تناول -الحبوب- حيث يُلقي بها في التصريف الخاص بدورات

المياه بعد التظاهر أمام الممرضين ببلعها، وجمع عددًا لا بأس به من المرضى في مكان صغير ليخطبَ بهم، وليعلن أمامهم أنه ملك مصر القادم، وأنه نبيٌّ مُرسل ويجب عليهم جميعًا اتباعه وتصديقه».. ويرجع ذلك لإهماله الدواء المُوصى به.

سأل المريض: متى ستقومون بصرفي من المستشفى؟

أجاب «فيصل» أنه إذا انصاع للأوامر وبدأ في المداومة على تناول الدواء كما يُطلب منه.. سيتم بدء التفكير في أمر خروجه، أم الآن.. فذلك مستحيل.

صمت «المريض» لوهلة، ثم عاد للضحك وتكرار السؤال: «هل أنا مجنون كما يزعمون؟»

لم يُجبه «فيصل»؛ لكنه نهض وأمسك بيده برفق ليخرجه من الغرفة وطلب منه الالتزام بالعلاج، ليتلقى منه وعدًا على شرط اخراجه من المستشفى عند التزامه. اكتفى «فيصل» بتسليم المريض للممرض «فهد» عند الباب.. ليخرج من الباب الحديدي مودعًا زملاءه المُمرضين.

ها هو يوم الخميس.. وفي العيادة لم تكُن هناك حالات صعبة إنما مُجرّد مراجعات لإيقاف الدواء أو لأخذ كميات إضافية منه.

من جانبٍ آخر عزمت «ضَيْ» على أخذ الكثير من الهدايا كسابق عادتها والذهاب إلى المستشفى الخاص في أورام الأطفال، فرح والدها وبارك خطوتها واعتبرها بداية الطريق لاسترداد ابنته القديمة بشخصيتها الجميلة.. اصطحبها معه في سيارته وفور دخولها إلى المبنى فرحت المُشرفة لرؤيتها بعد غياب طويل واستقبلتها بالأحضان مُرحّبة بها.. وباشرت سؤالها عن سبب اختفائها منذ عامين وعن عدم إجابتها على اتصالاتهم وأوضحت أنهم ظنّوا أنه قد أصابها مكروه ما؛ نفت ذلك، وأخبرتهم أنها كانت تعيش مرحلة عُزلة مع نفسها بعد وفاة أمها.

دخلت «ضَيْ» على الأطفال.. تسابقوا راكضين اتجاهها، قامت بتوزيع الهدايا عليهم وبدأت في عيش أجمل اللحظات أثناء مراقبتها لفرحتهم ولهفتهم في فتح الهدايا.

أخبرت «المُشرفة» «ضَيْ» أن تنتظرها في مكتبها ريثما تُنهي بعض الأمور، وتأتي إليها لتُخبرها بالتطورات التي طرأت على المركز في فترة غيابها.. رحبّت بذلك.. وأثناء جلوسها في «الغرفة» وجدت على الطاولة عدّة منشورات طبية، بدأت قراءتها.. ولم تمضِ نصف ساعة حتى خرجت «ضَيْ» تُسابق أنفاسُها خطواتِها من شدة سرعتها، قطعت شوطًا طويلاً من ممرات المستشفى الطويلة لتجد نفسها خارج المبنى، اتجهت نحو سيارة والدها الذي كان ينتظرها في الخارج، فتحت الباب وصعدت لتجاوره في المقعد ولم تتفوه بكلمة..

مما أثار استغراب والدها الذي بادر في السؤال بعد تردد عن خروجها الباكر، لأنه اعتاد أن تقطع وقتًا أطول في الداخل.. أخبرته أن الصداع تمكّن منها ولم تحتمل البقاء.. حكى لها بعض الأحداث التي يواجهُها هذه الأيام في عمله أثناء سيرهما في الطريق دون أن يسمع تعليقًا منها.. التفت إليها بعد توقفه عند إحدى الإشارات الضوئية فوَجدَ عينيها قد امتلأتا بالدموع التي حاولت طيلة الطريق أن تمنعها.. لكنها هزمتها، تعجّب الأب واستمر في الطريق المؤدية لأقرب موقف للسيارات بعد الإشارة الضوئية، بعد توقّفه نظر إليها بكل ما يحمله من حنيّة الأب وقال: «ما بكِ يا ابنتي؟».

- لا شيء.

كرّر السؤال عدة مرات، بكل إصرار.. وأقسم أنه لن يبرح مكانه حتى تُخبره ما بها!!

- أخاف عليك كثيرًا.. عندما أتذكر أنك ستفتقدُني للأبد!

لم يتمالك نفسه.. ضمّ رأسها إلى صدره الحنون.. وأخبرها «أنه لن يحتمل فَقدها وزوجته معًا.. وبيّن لها أنها لا تشتكي من مرض قد يُنهي حياتها لا سمح الله».. مسح دموعها بإصبعه ثم تذوقها بطرف لسانه، وقال: «إنها المرة الأولى التي أتذوّق فيها دموعاً حلوة لا ملوحة فيها».

ابتسمت ضَيْ وقالت: «هذه المرة الألف التي تكذب فيها علي وتقول إنها الأولى».. ضحك معها وردد «لا أرغب في سماع كلمات الفقد مرة أخرى»، تجاوبت معه وأكملا ما تبقى من طريقهما.

في الأسبوع التالي وفي يوم الخميس تحديداً، كان الموعد الذي أعطاه فيصل لضَيْ في عيادته ليتسنّى له مُتابعة حالتها والنظر إلى التطورات التي يتطلّع لها.

مرّت الساعة التاسعة والنصف المحددة وبعدها العاشرة ولم تأتي، جرّب الاتصال بالرقم الموجود في الملف بنفسه ليتأكد من قدومها أو عدمه لكن لم يجد رداً.. عرف أنها لن تأتي، وضلّ متسائلًا في نفسه عن السبب.

صلّيتُ في المسجد الأقصى

طلب من المُمرضة إدخال المريض التالي، جاء رجل ستيني يرتدي ثوبًا، بوجهٍ يحمل ملامح رثّة ومعه مرافقه، صافح «فيصل» كانت يده مُبللة بماءٍ دافئ.. تعجب «فيصل».. ولاحظ أن وجه المريض مبلل و أيضاً ثوبه.. سأله عن سبب وجود الماء بهذا الشكل؟

أجاب «المريض» بلغة الأوردو التي ينطق بها أهل الهند وما جاورها.. استغرب «فيصل» وكرّر السؤال.. رد «المريض» باللغة نفسها.. التفت إلى مرافقه وسأله عن صلة القرابة بينهما؟ أجاب: «المريض خالي»، وجه «فيصل» السؤال له: «ما سبب وجود الماء على أطرافه وثيابه؟» أجاب «المرافق» بأن جسمه يتعرّق باستمرار وطيلة الوقت. سأله عن اللغة التي يتحدث بها وهل له أقارب من الجنسية الهندية؟، ضحك المُرافق وأخبره أن خاله يُحب الاستعراض بمعرفته للغة أمام جميع من يُقابلهم لأول مرة!

نظر فيصل له وقال: «كيف حالك؟».. أجاب مُجدداً بالأوردو، مما استفز فيصل ليرفع صوته قليلاً على المريض، موضحًا أنه عربي وأن كل الموجودين في الغرفة عرب، وطلبه التحدث باللغة العربية أو الخروج.

ابتسم المريض وقال: «أوقعتك في الفخ، حتى وأنت طبيب تغضب.. إذًا لماذا يعتبرونني مريض، لأنني أغضب سريعًا؟».

تغاضى فيصل عن ردّه وسأله: لماذا يبدوا وجهك شاحبًا؟

- لأني لا أنام.

- لماذا لا تنام؟

- لأني غاضب من أهلي!

- ولماذا أنتَ غاضب منهم؟

- يمنعونني من الجلوس جوار النار!

علّق قريبه قائلاً؛ أن خاله يُحب النار كثيرًا خصوصًا في فصل الشتاء وأنه يجلس جوار الموقد، وحاول إيذاء نفسه عدّة مرات، يضع يديه داخل النار ويبقيها في الداخل لولا انتباه من بجواره إليه ومساعدتهم له في إخراجها، وقد أُصيب بحروق في السنوات الماضية، بل أنه في مرّة من المرات كاد أن يُضرم النار في المنزل.

غضب المريض لسماعه ذلك.. بدأ في إلقاء الشتائم على ابن أخته ولم يعُد يُريد النظر إليه طيلة الوقت المتبقي لهما في العيادة.

سأل «فيصل» المريض: هل تظن أنّ لديك قدرات خارقة تحميك من ألسنة اللهب وأنك لو تركت يدك فيها لن تتمكن من أذيّتك؟

هزّ المريض رأسه بالإيجاب؛ ثُمّ تنبّه لنفسه ونفى قائلاً: « لن أُخبرك عن أسراري، من أنت لِتعرفها؟»

التفت فيصل إلى مرافقه وسأله: «متى ظهرت مشكلته؟».

@freebooksf

أجاب أنه في البداية كان يخرج من المنزل ويستقلّ سيارته ليختفي مدة أسبوع كامل دون أن يترك خبرًا حول وجهته التي يقصدها وحينما يرجع لا يُخبر أحداً أين كان؟ ولماذا ذهب؟ ويعتبر هذا سراً من أسراره!

سأل فيصل: «كم مرة فعلها؟».

- تجاوزت العشرين.

علّق فيصل مُتعجبًا؛ عن عدم منعه أو إخفاء مفتاح السيارة عنه..

أجابه؛ أنهم حاولوا، بل أنهم فعلوا كل ما استطاعوا فعله، حتى أنه قد سرق المفاتيح الخاصة بسيارات إخوته أو أبنائهم خارجًا عدة أيام.. تتجاوز الأسبوع.. وأنه يتسلّل هاربًا من المنزل ليلاً أو صباحاً.. كما يفعل اللصوص دون أن يُوقعوا به رغم حرصهم الشديد عليه.

عرف فيصل أنه يُواجه مريضاً صعبًا ويبدو أنه مُراوغ ماهر.

سأله فيصل عن ماضيه مع المخدرات.. أجاب أنه كان يتعاطى «الكبتاجون» يوميًا بمقدار (أربع حبات) منذ عشرين عامًا.. وكان يحتسي الخمر بشراهة ويُدخن الحشيش أيضًا.. وبعدها سأله عن حاضره.. فَأخبره أنه توقف عن هذه الأمور منذ سنوات، لكنه الآن يدخن بعض السجائر العادية بمقدار ثلاثة علب في اليوم الواحد.

سأل «فيصل»: ما دُمت تستخدم ثلاثة عُلبٍ يومياً فما مصدر دخلك؟ خصوصًا أنك ممنوع من الخروج من المنزل ولا وظيفة لك كما يتضح!

ضحك مستهزئاً وأجاب؛ « في بعض الأحيان إذا خرجت وحيدًا أقوم بالسرقة لتوفير قيمة السجائر، وقد قمت بسرقة المال من أبناء إخوتي عدّة مرات دون علمهم».

فيصل: ماذا تتمنى؟

- أرغب في ترك هذه المدينة لأنني أكره أهلها؛ إنهم ينظرون لي نظرة احتقار وازدراء واستخفاف، أريد الرحيل إلى مكان آخر لا يشبه هذا.

فيصل: حسناً؛ إذا غادرت البلدة، فما هي وجهتُك؟

- «الهند» الحبيبة.. ثم ألقى بنظرهِ نحو قريبه في احتقار.. وقال: «ابن أختي وأقاربي يمنعوني السفر إليها مرة أخرى.. وهم مُصرّون على إبقائي، وقد قيّدوا حريتي».

صبّ «فيصل» تركيزه على عبارة «مرة أخرى».. وسأله: هل سبق لك السفر إليها؟

- أجل؛ سافرت إلى الهند وقد أمضيت هناك أربعة أعوامٍ، كانت الأجمل على الإطلاق.. إن «أميشا» توقظني صباحًا في الكوخ الريفي ....

- من «أميشا»؟!

ـ صاحبة الكوخ الذي كان يُقيم به! «أجاب قريبه».

«إنها امرأة طاعنة في السن، عطوفة عليه، عاملته كابنٍ لها.. حتى أخذ يتغزل بتلك المنطقة بأكملها من طقسها إلى طبيعتها الخلابة، ولا مقارنة بينها وبين الصحاري التي نعيش فيها هنا، ويرجع الفضل في عشقه وفتنته بها إلى تقبّل سكان القرية له طيلة الفترة التي قضاها معهم رغم أنه ليس منهم، عكس ما يعامله به أهل بلده الذي هو منهم وفيهم، بحسب قوله».. «وليكن في عِلمك يا (طبيب) خالي لم يُغادر هذه البلاد أبدًا ولم يسافر إطلاقًا وما أخبرتك به مجرد تخيلات أقنع نفسه بها وأصبح يُصدقها ويُريد أن يرجع هناك ليعيشها من جديد».

لم يترك المريض «ابن أخته» يُكمل كلامه إلا وقفز عليه وبدأ في ضربه وشتمه ونعته بالكاذب.. تحرك «فيصل» إليه مسرعًا ليبعده عنه محاولًا تهدئته؛ «لا تهتم لكلامه أنا أصدقك، فأنت مريضي».. نهضَ عنه مُشترطًا خروجه من الغرفة لإكمال حديثه.. رفض «فيصل» وأقنعه بإبقائه صامتًا طيلة الجلسة وألّا يتحدث إلا إذا تم سؤاله؛ وافق «المريض» وهو ينظر لابن أخته بنظراتٍ يملؤها الغضب.

فيصل: حدّثني عمّا تكره؟

أشار على «ابن أخته».. لم يتمالك «الطبيب» نفسه وبدأ في الضحك على الإجابة السريعة والنابعة من حقدٍ واضح ودفين.

- لماذا؟ لأنه يمنعك من الخروج من المنزل؟

-لا؛ إنه يجبرني على الحضور إلى المستشفى لمقابلتك أنتَ ومن هم على شاكلتك.

وجّه «فيصل» السؤال إلى «مرافقه»: هل حاولتم الترفيه عنه وإخراجه تحت إشرافكم في سبيل تغيير حالته؟

تنهد عميقًا، وقال: «حاولنا إخراجه في نزهاتٍ برية، تارةً يضع يده وسط النار، وبعدما نمنعه يبدأ في إيذاء الذي يقترب منه بسكين أو ما شابه.. وأخرى يقول إنه يريد مفاتيح السيارة ليتسنّى له القيام بجولة صغيرة بالقرب منّا، وبعد رفضنّا ذلك يبدأ الصراخ علينا؛ كالأطفال.. مما يُفسِد علينا متعة التنزه، وحين نُلزِمه الجلوس جوار أحد منّا والتأكيد عليه بعدم الابتعاد عنه، يقوم بالتبول على نفسه متعمدًا ليبدأ بالضحك ويلتصق بمن ألقى عليه الأمر ليؤذيه برائحته النتنة.. ظنًا منه أنه يُعاقبه بفعلته»..

«وعند الذهاب به حيث (المنتزهات الخضراء العائلية والحدائق) يبدأ في التحرش بنساء العوائل المجاورة.. مما قد يُسبّب المضايقات لهم والمشاكل لنا معهم، وفي بعض المرّات يقوم بإشغالنا عنه ليسرق

المفاتيح ويأخذ السيارة ليهرب بها بعيداً، مما يُلزمنا على البقاء لساعاتٍ في المنتزه حتى نطلب المساعدة لنستطيع الذهاب إلى المنزل.. وأن رجوعه يستغرق أياماً وأسابيع».. هذه الأسباب التي جعلتهم يمنعونه عن الخروج بشكلٍ قطعي للضرر الكبير الذي يسببه أو الأذى البالغ الذي يخلفه وراءه».

بينما كان يسرد التفاصيل والأسباب، كانت عينيّ الخال تُتابع ملامح وجهه بنظرةٍ لا تفارقها الحماسة والغضب؛ كمن يتصيّد الكلمات ليقوم بركلته الكبيرة.

استغرق «الطبيب» في التفكير حتى قاطعه «المريض»: قبل أسبوع من الآن سافرت من الرياض إلى عاصمة اليمن (صنعاء)، سيراً على أقدامي».. ابتسم «فيصل» قائلاً: هل عانيت في سفرك؟

- ومن أخبرك بأنه «سفر»؟! إنها نزهة بسيطة لتحريك الأقدام لا أكثر.. أحب أهل اليمن.. ذهبت إلى صنعاء وعدن في ما يقل عن نصف ساعة سيراً على الأقدام.

- حسنًا بما أن هذه «نزهة بسيطة»؛ فما هو السفر حسب وجهة نظرك؟

- لقد سافرت إلى فلسطين سابقًا..

تنحنح «فيصل» ثم عدّل من طريقة جلوسه ووضع يده على خده.. وقال له: كيف فعلت ذلك؟

- لقد اتفقت مع صديق لي من الجنسية الأردنية، على خطة لدخول القدس فذهبت له سيرًا على الأقدام حتى دخلت الحدود الأردنية وبعد أن التقيته بدأنا في تنفيذ خطتنا المدروسة.

قاطعه «فيصل»: وما الخطة؟

- ارتدينا أكياساً سوداء -الخاصة بالقمامة- ثم نزلنا للغوص في البحر الميّت واستغرقنا ساعات حتى وصلنا إلى القدس ولم يكتشفنا أحد.

- لماذا هذه الأكياس بالتحديد؟

- لغرض التخفي؛ أنتَ لن تفهم هذه الأشياء لأنك لم تقم بتجربتها.

- حسنًا.. وماذا فعلتم بعد الوصول إلى القدس؟

- كان الطريق ممتعًا، أشجار الزيتون تحيطنا من كل جهة، الناس لطيفون جدًا يبادلوننا الابتسامات، تذوقت الكنافة النابلسية هناك؛ لا يمكنني إخبارك عن مدى لذتها! بعد ساعات رُفِع أذان المغرب في المسجد الأقصى إنها لحظة عظيمة جدًا لا يمكنك تخيلها.. تقف في ساحة المسجد بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى، تستمع للأذان وترى الناس قد تركت كل ما بين يديها مقبلةً على الصلاة.

وصف تفاصيل لا يكاد يعرفها إلا من عاشها على أرض الواقع، مُتلذذًا في سردها..

@freebooksf

الطبيب «فيصل» رغم علمه أن قصصه من تخيلاته الواسعة إلا أنه كان مُستمتعًا بها ولوهلة كاد أن يُصدقها.. لدقة وعمق التفاصيل التي يذكرها.. النقوش على جدران المسجد الأقصى من الداخل و السور القرآنية التي تلاها الإمام في صلاته، عدم رغبته في أداء صلاتيّ «المغرب والعشاء» جمعًا وقصرًا ليؤديهما مع جماعة المسجد منفصلتين حتى ينال على أجرٍ أكبر، ذهابهُ للتسوق في الدكاكين المجاورة بين الصلاتين.. ماذا أكل؟ وماذا اشترى؟ كيف جلس هو وصديقه مع مجموعة من الناس حول رجل مُسِن يروي قصصًا قديمة حدثت له؟ كيف يُصفق له الجميع بعد نهاية كل قصة؟ كيف توقفت جولتهما الصغيرة بعد أن سمعا «أذان العشاء» لِينطلقا مُسرعين نحو المسجد الأقصى وليتقدما بين الصفوف الأولى.

ختم حديثه عن رحلة الرجوع بعد اختفاء الكيس الأسود لكليهما والرعب الذي عاشاه خشية أن ينكشف أمرهما لولا أن ساعدهما أحد الأطفال الفلسطينيين الذي كان يلعب مع أصدقائه على الشاطئ.. بعد أن أحضر لهما «كيس نفايات أسود» مثلما طلبا منه ليلبس كلٌ منهما خاصته ويتخذا طريقهما في البحر عومًا.. حتى وصلا إلى الطرف الآخر (شواطئ الأردن) بعد ساعات.. ليأخذا قسطًا من الراحة بعد إرهاق السباحة.. وليتم إعداد خطة الرجوع (سيراً على الأقدام من الأردن إلى الرياض) حتى لا يعلم أحد عن أمره كما يقول.

ابتسم «فيصل» بوداعةٍ، وأخبره عن مدى انسجامه مع مغامرته وعن أمنياته لزيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه والتجول في أرجاء القدس.. لكنه لا يرغب إطلاقًا في مرافقته للسباحة داخل البحر مُتخفيًا في أكياس نفايات! ثم تبادر إلى ذهن فيصل سؤال طرحه على المريض:

- بماذا تتميّز أنت؟

- الكثير الذي لن أخبرك عنه.

- في معتقدك أنك تحمل قوى خارقة تحميك من النار، وتمنحك قدرة المشي لآلاف الكيلومترات سيراً على الأقدام دون تعب أو ملل، وتؤهلك للسباحة في (البحر الميت) مرتان في بضع ساعات وفي يوم واحد.. هل من مزيد؟

- أجل؛ أنا مختلف عن البقيّة، لديّ إمكانيات أخرى لن أطلعك عليها.. لا تحاول عبثًا.

- حسنًا.. حسنًا إنه السؤال الأخير؛ أنت الآن في المستشفى أو المدرسة؟

سكت مُتحيّرًا من الأمر لمدة دقيقتين، ثم ألحّ على تغيير (السؤال) الذي لا يعرف كيف يُجيب عليه!

كرر الطبيب سؤاله..

- هل نحن الآن في المدرسة أو المستشفى؟

- لا فرق بين الخيارين، ولا إجابة لدي.

لم يكُن مُدركاً بمكان تواجده بشكلٍ جلي، بدأ «الطبيب» في كتابة الوصفة الطبية المناسبة لحالته، ثم أعطاها مرافقه ليستلمها من الصيدلية، ثم وقف ليشكر المريض نفسه ويطلب منه الالتزام بالعلاج وألّا يهرب من منزله؛ ضحك المريض قائلاً: سألتزم العلاج، لكن الهرب هو حياتي التي لن أتخلّى عنها.

شكر المريض الطبيب وخرج.

كرّر الطبيب «فيصل» محاولة الاتصال بالرقم الذي في ملف «ضَيْ» لكنّه للمرة الأخرى لم يتلقى أيّ رد.. بعد أن أنهى مراجعة وتدوين حالات المرضى لليوم خلع معطفه وأغلق ضوء مكتبه مستعدًا للعودة إلى منزله بعد تعبٍ وإرهاق تام راغبًا في النوم العميق.

صباح يوم الجمعة؛ استيقظ «فيصل» مبكرًا وبدأ يومه بأداء صلواته الفائتة، ثم خرج متجهًا إلى المطبخ ليجد والدته قد باشرت إعداد طعام الإفطار، وأخاه «رائد» يقرأ إحدى المجلات العلمية، جلس بجواره أخِذًا المجلة من بين يديّه ليضعها على الطرف الآخر لطاولة الطعام بعيدًا عنه، طالبًا منه تناول طعامه وموضحًا له بأنه ليس وقتًا مناسبًا للقراءة..

وفي أثناء ذلك سألت «والدة فيصل» ابنها عن عمله، وعن المشاكل التي واجهته الفترة الماضية، ليخبرها أن أوضاعه تسير على ما يُرام

باستثناء حالة غريبة يشعر أنها تتلاعب به، وأوضحَ عجزه لإيجاد تشخيص مُناسب لها.

الأم: الأعراض غامضة لهذه الدرجة؟

فيصل: أجل؛ تعاني صداعًا مزمنًا ومتزايدًا، وفقدانًا مؤقتًا للذاكرة، وأحيانًا بحسب ما قرأت في ملفها تتغيّر شخصيتها ويتبدل مزاجها..

قاطعه «رائد»: هل تم إجراء أشعة لرأسها؟

التفت إليه «فيصل»: هل تقصد احتمال إصابتها بورمٍ في الرأس؟

رائد: أجل؛ قرأت في أحد كُتبك وفي الطروحات الطبية على أحد المواقع عبر الانترنت، عن وجود أنواع مسبّبة لأعراضٍ مُشابهة لما ذكرت.. لكن مشكلتك يا فيصل هو ظنّك أن التشخيص لن يخرج عن كونه مرضًا نفسيًا لتضع كل الاحتمالات وفقًا لذلك ولم تُفكّر خارج دائرتك.

سكتَ «فيصل» للحظة يعاتب نفسه كيف لم يفكر في الأمر؟

خرجا معًا للمسجد ترافقهما دعوات والدتهما لتأدية صلاة الجمعة، وبعد عودتهما.. جلس فيصل أمام جهاز الكمبيوتر المحمول للبحث والقراءة حول المرض الذي ناقشه مع «رائد» لساعة من الوقت وليتأكد له جزءٌ كبير مما ذكر.

وعلى إثر ذلك لم يحتمل «فيصل» الانتظار حتى يوم الأحد ليتمكن من الذهاب إلى قسم الأشعة، ليلتقي صديقه الدكتور «سعد» بعد التحايا جلسا حول المكتب ليخبره «فيصل» عن الموضوع منذ بدايته وكيف تم تحويله له، وعن الأعراض المصاحبة للحالة وعن بحثه وتفتيشه ليجدها مطابقة نوعًا ما لأعراض أحد أورام المخ.. وافقه «سعد» على ذلك وأخبره أنه يجب عليه الآن تحويلها إلى قسم الأشعة لعمل الفحوصات اللازمة لها، ووفقًا للنتائج يقرران ما يجب فعله معها.. واتفقا على ذلك.

في يوم الاربعاء تلقى «فيصل» اتصالاً من رقم هاتف غريب، ليعرف لاحقًا أنه والد «ضيْ»، الذي بدأ حديثه باعتذاره عن عدم حضورهما في الأسبوع الماضي نظراً لحالتها الصحية، ليخبره «فيصل» أنه يرغب في قدومهما العاجل إلى العيادة ليقوم بتحويلها إلى قسم الأشعة، ولاستكمال الفحوصات واستبعاد التشخيصات الحالية أو تأكيدها.. لم يُبدِ والدها أي اعتراض. طلب منه «فيصل» ألاّ يخبر «ضيْ» عن غرض الزيارة وحدّدا معًا موعد الزيارة القادمة، لتنتهي المكالمة بالشكر والامتنان لاهتمامه بحالة «ضيْ» وحرصه عليها.

في اليوم التالي وصل «فيصل» إلى عيادته وبدأ في استقبال المرضى بالتتالي.. وفي نهاية الوقت المحدد للدوام سأل «الممرضة» حول

الحالات المتبقية في القائمة.. ابتسمت قائلة: «تبقى صديقك».

- صديقي؟

- ستراه الآن بعد خروجي.

خرجت ليدخل بعدها رجل ثلاثيني مُبتهج، يحمل أعلى وجهه ابتسامة عريضة تكاد تُحصي منها عدد أسنانه.. فتح ذراعيه مُتجهًا نحو فيصل الذي وقف مُبتسمًا بعد أن تذكره.. أخذ «الزائر» يحضنه بحماس شديد.. لم يشعر خلاله بجسد الطبيب الذي يريد التملّص من بين يديه: «أُقسم أني أحبك يا دكتور».

- «تفضل الجلوس»..، بدأ الطبيب في الاطمئنان عليه وسؤاله عن حاله؛ أجاب أنه لا يُعاني من شيء، لكنه تعنّى لرؤيته بعد أن اشتاق له كثيرًا.. وأنه ينتظر أن يحين موعد زيارته للعيادة منذ أشهر ليشكره على مساعدته لتجاوز العارض الصحي الذي مرّ به ونهض فجأةً محاولاً احتضانه مرة أخرى.. ضحك الطبيب، وأخبره أن المرة الأولى كانت كافية.. لم يستجب له مُصِرًا على ضمّه وتقبيل رأسه ثم خرج مُلوحًا بيده كطفل صغير يودع أصدقائه.

أنهى عمله في وقتٍ متأخر لتبدأ إجازة نهاية الأسبوع الخاصة به..

في طريقه إلى المنزل وأثناء تورطه في الزحام تلقى اتصالاً من والد «ضيْ»، والذي بدأ مُعتذرًا فيه عن وقت الاتصال وموضحًا سببه وهو رغبته في دعوة «فيصل» إلى منزله يوم السبت لتناول العشاء..

بناءً على اقتراح «ضيْ» وحماسها لإعداد الطعام له بنفسها؛ فرح كثيرًا قائلاً: «مثل هذا العرض لا يُرفض» وفكّر في اقتناص الفرصة ليخبرها عن الخطوة القادمة.

أتى السبت بعد ساعاتٍ ثقيلة وبطيئة، والأشد منها ملالاً هو انتظار أذان العشاء.. قبل الموعد بساعتين بدأ في تجهيز نفسه ليبدو في قمة أناقته ولينطلق مُبكرًا إلى منزلهم حتى يصل في الوقت المُحدد.

استقبله والد «ضيْ» مُرحِبًا به بحفاوة شديدة.. تداولا الكثير من الأحاديث بينهما، حتى انتصرت عليه رغبته وفضوله لمعرفة ما حصل مع «ضيْ» في الأسبوع الماضي.. ليخبره «والدها» أن فقدان الذاكرة عاد إليها من جديد، ولكن هذه المرة كان عنيفًا وليس كما النوبات السابقة، وأنه ألغى جميع ارتباطاته ولازمها في البيت خشية أن تؤذي نفسها أو أن تخرج وتضيع.

بعد انتهائه من الحديث سأله «فيصل» لماذا لم يُعلمه مُبكراً بذلك وعن تأجيل الاتصال بهِ لأسبوعٍ كامل؛ أجاب أن «ضيْ» طلبت منه أن يُخفي الأمر عنه.. لكنه بعد الآن لن يستطع التكتم وبالتحديد عن طبيبها.

عند جملته الأخيرة طُرِق الباب لتدخل «ضيْ»؛ تمشي على استحياء مُشرقة الوجه طيّبة المبسم.. لا شعوريًا وقف «فيصل» وهو يُحدّق

فيها بذهول وكأنها - بِسحر - تفضحه ابتسامته العفوية... رحّبت به ثم دَعَتْه ووالدها لتناول العشاء.

بعد جلوسهم حول المائدة؛ (الأب) على رأس الطاولة، ليتقابل كلٌّ من (ضي) و(فيصل).. كان فيصل حائرًا، بين لذة ما يتذوقه لسانه أم عيناه.. أثناء تناول الطعام كان التلفاز يعرض برنامجاً للمواهب حيث يقفون على خشبة المسرح ويُقدمون ما لديهم من إبداع، قالت ضيْ بأنّ أحد أحلامها يكمن في وقوفها يوماً ما أمام خشبة مسرحٍ أمام الكثير من المتفرجين لتتحدّث أمامهم لكنّها لم تُحدّد ولم تعرف بعد ما ستُخبرهم به.. مازحها فيصل قائلاً: غالباً ستأتي الأفكار بشكلٍ مفاجئ في حال وقوفك أمام الناس لكن إيّاكِ والحديث عن زيارتكِ لي، أرجوكِ لا تفعلي «قالها ضاحكاً».

بعد الطعام.. أثنى «الوالد» على لذة ما أعدّته ابنته، ليزيد «فيصل» عليه ببالغ الامتنان.. ثم ليسألها عن عدم زيارتها للعيادة في الأسبوع الماضي مُبيّنًا استغرابه؛ ارتبكت للحظة وفي صمتٍ نهضت لإحضار أطباق الحلوى لتضعها على المائدة.. ويبدو أنها كانت تبحث عن إجابة مقنعة: «الصداع هو السبب».. ابتسم وأخبرها أن والدها سعيد الآن لشعوره أنها أفضل حالاً من قبل، وأن الصداع استسلم منذ فترة.. توقف ونظر لأبيها الذي كان يبتسم متناولاً الحلوى..

أكمـل حديثه لهـا بأنه توصّل لتشـخيصات عديـدة لأمراض قد تُسبّب ذات الأعـراض التـي تُعانيها.

تبدلـت ملامحهـا المُبتسـمة إلى ملامـح قلقـة ومنزعجـة، لتسـأله: هل بإمكانـك أن تُخبرنـا عـن التشـخيصات التـي توصلـت إليهـا؟

رفـض متعـذرًا أنهـا مُجرد احتـمالات لم يتـم ترجيحها حتـى الآن ومن غـير اللائـق طبيًا إخبـار المريض بمـرضٍ لم يتـم التأكد مـن صحته.

- ماذا سنفعل؟ (سألت).

- عليـكِ القيـام بزيـارةٍ قصيرة للمستشـفى هـذا الأسـبوع لتحويلكِ إلى قسـم الأشـعة وأخذ بعـض الصور لرأسـك.

- لَماذا رأسي بالتحديد؟

- الأمر ضروري لمعرفة أسباب الصداع المزمن وفقدان الذاكرة.

ازدادت توتـرًا وقالـت: لا.. لا؛ لـن أتعـرض لهـذه الأشـعة، فهـي ضـارة لقـد قـرأت عنهـا سـابقًا.

قاطعهـا: «لمـاذا التوتـر والقلـق الآن؟ وفي أي كتـاب قـرأتِ عـن أضرارهـا؟».. لم يجـد إجابـة! بعـد لحظـات قليلـة خرجت عـن صمتها ونهضـت مـن مكانهـا لتخبره بنبرة صـوت مرتفعـة وحـادة؛ أنهـا لن تقـوم بعمـل الفحوصـات مهـما كلفها الأمـر.. مؤكـدةً له أنها لـن تزور المستشـفى مـن جديـد لأي سـبب كان.. ثـم ختمـت كلامها بـ« شكراً لـك عـلى الزيـارة اللطيفـة وجُهـودك معـي، لتسـمح لي الآن قـد حـان

وقت خلودي إلى النوم لقد بدأت أشعر بألم في رأسي يكاد يُفتّته»..
توجهت إلى الطابق العلوي مُسرعة وسط صمت رهيب من - فيصل وأبيها - لعدم توقعهما ردّة الفعل السلبية.

تبادلا الاعتذارات بطريقة متتالية.. قطعها فيصل مبتسمًا ومهوّنًا «إنّ ما حصل لأمرٌ بسيط مقارنة فيما أواجه مع زوار العيادة».. ثم شكر الأب بامتنان على دعوته وإكرامه له.. وطلب منه إعلامه في حال حدوث أي تغيير وأن يجلبها في أسرع وقت إلى العيادة.

غادر، بينما أمضت «ضيْ» ليلتها مُحتضنة وسادتها وهي تبكي حتى الصباح.

في ظهيرة يوم «الثلاثاء» كان فيصل يتجوّل في ممرات المستشفى غارقًا بين أفكاره حتى قاطعة صوت - جرس - هاتفه، إذْ به زميله في القسم الدكتور «زياد».. أخبره أن لديه حالة في قسم التنويم كان يجب عليه زيارتها وتحديث الملف الخاص بها والتأكد من فعالية الأدوية التي وُصِفت لها في الشهر الأخير.. لكن زوجته قد تلد مولودها الأول في أي لحظة قادمة ويُريد أن يكون إلى جانبها؛ ليستفسر من «فيصل» عن إمكانية ذهابه لمقابلة الحالة عوضاً عنه؟
وافق «فيصل» دون تردد وتمنى ولادة آمنة لزوجته وبارك له مُقدمًا بما سيرزقه الله، ثم أخذ اسم المريض من زياد ليتوجه إلى «العنبر».

بعد وصوله إلى الباب الحديدي الكبير تم فتحه ليجد فهد في انتظاره مُرحبًا به ومازحًا إياه: «هل أنت رجل الطوارئ هنا؟ إن تغيّب أحدهم أو صادفته ظروف تنقذ الموقف؟»؛ ضحكا معًا وخلال ذلك صادفا الرجل -المُقيّد سابقاً- والقيود الوهمية تعكر حركة يديه، وما إن لمح «فيصل» إلاّ وتوجه نحوه مُسرعاً كما يعتقد، رغم بطء خطواته.. ليمد قيده له، في تفاهم واضح بينهما ورثاه من لقائهما السابق.. ابتسم له وسأله عن سبب تقييده هذه المرة وهل من خطأ ارتكبه ليستحق ذلك؟ أومأ برأسه إيجابًا.

تظاهر فيصل بإخراج مفتاح الأصفاد وبدأ في تحريكه أمامه؛ قائلاً: «سأقوم بفك قيدك الآن، في المرة القادمة سأجعلهم يقومون بتقييد يديك وقدميك معًا». فكّ قيده وكان (فهد) مُستمتعًا بما يحدث محاولًا كتم صوت ضحكته، وما إن انتهى حتى قَبّل السجين رأسه - شاكراً له - ليبتعد عنهما رافعًا كفوف يديّه وكأنما أراد أن يُعلن حريته.

عبرا بالقرب من ذلك المريض الذي يُراقب الكاميرا عوضا عن مراقبتها له.. ألقيا عليه التحية دون أن يتلقيا أي رد منه.. وصلا إلى الغرفة المنشودة؛ وجدَ ملف المريض فيها جاهزًا، استأذن فهد لجلب المريض إليه.

لم تمض دقيقتان على شروعه في قراءة الملف حتى أتى «فهد» مُصطحباً المريض معه، قائلاً: إنّ من غاية البساطة العثور عليه؛ غالباً ما تجده في مصلى العنبر.

ألقى «فهد» جملته، وخرج من الغرفة ليُنهي بعض المهمات الموكلة إليه.. شكره « فيصل» بدوره على تعاونه.

همزات الشياطين

«المريض» قصير القامة، كثيف اللحية، طويل الشعر.. تبدو عليه علامات الصلاح، دعاه فيصل للجلوس أمامه.. استجاب قائلاً: «جزاك الله خيراً».

- كيف حالك؟

- بخير.

- ما سبب وجودك هنا؟

- سري للغاية.

- أخبرني؛ أعدك أن أكون أميناً.

فكرَ مليًّا ثم قال: أين ذلك الزنديق المدعو بـ زياد؟ لماذا لم يأتي اليوم لرؤيتي؟

قاطعه فيصل: الدكتور «زياد» طبيبك الخاص.. وهو ليس زنديقًا بل رجلٌ ذو أخلاق عالية؛ الآن هو مشغول في انتظار مولوده الجديد.

- كان الله في عون المولود الجديد على أبيه.

- لماذا تدعوه بالزنديق بإصرار؟

- الدكتور «زياد» لا يُصدق ما أقوله وهذا إثمٌ كبير قد يذهب به إلى النار.

- «إلى النار!»

- أجل؛ فأنا لدي قدرات خارقة لا تُصدق.

وبعدما سأله «فيصل» عنها لم يُجِب والتزم الصمت.. وسأله:

- ما هي قصة الفيس بوك معك؟ ضحك قائلاً: هل دوّنها الزنديق في الملف دون أن يُخبرني؟ لم ألقبه بذلك عبثًا!

نظر إليهِ «فيصل» في انتظار إجابة؛ بدأ بقوله إن علاقته بـ(الفيس بوك) علاقة إدمان شديدة، حيث كان لا ينام في اليوم إلا ساعتين فقط وبقية ساعاته كان متسمرًا فيها أمام شاشة المحمول الخاص به.

- ماذا تستفيد؟

- استغلُ الفيس بوك للتعارف على أصدقاء جدد من جنسيات مُتعددة وديانات مُختلفة لتطوير ثقافتي.

- جميل، من أكثر صديق تأثرت فيه وبثقافته؟

- صديقٌ لي.. يهودي الديانة.. امتدت معرفتي به لأكثر من خمسة أعوام، إنه الأفضل على الإطلاق.

- كيف عرفته؟

- في البداية حاولت إقناعه أن تترك إسرائيل أراضي فلسطين لأهلها.. ولديّ نية دفينة لمُحادثة جميع سكان تل أبيب لإخلائها طوعًا.

- كيف تتواصل معه؟ هل تتكلم اللغة الانجليزية؟

- لا.

- هل تُتقن اللغة العبرية؟

- لا.

- هل يُتقن هو اللغة العربية؟

-لا؛ كلانـا يمتلـك قـوىً خاصـة تُمكننا مـن التواصل ببعضنا ولسنا في حاجـة لأن تجمعنـا لغة.

- ما هي القوى الخاصة بكما؟

التـزم الصمـت ليخرج مسـبحته مـن جيبه، ليبـدأ في التسـبيح والنظر إلى الأسفل.

شـعر «فيصـل» بمراوغته للهـرب من السـؤال، فقرر تغيـير صياغته: للتـو أخبرتنـي أنـك تمتلـك العديد مـن القـوى الخارقة، هـلّا ذكرت لي بعضها ؟

- هل تصدقني فيما أقول؟

- نعم.

- هل تدونها في الأوراق كما فعل زميلك سيئ الذكر؟

- لا.

- حسـنًا؛ أنصِـت إليّ، لـدي قـدرة غريبـة عجيبـة ميّـزني بهـا الله، لا أحبـذ أن يطّلِـع عليهـا أحـد حتـى لا تُسـتغلّ بشـكل سـيئ.

أشار له فيصل بيده حتى يُكمِل ما بدأه.

- أمتلـك قـوة خاصـة أرى من خلالها الجـن وأسـتطيع التحكم بهم.. هـل تُصـدق أم أنك تكذبنـي كما فعل الـذي قبلك؟

ابتسـم لـه وأومـأ برأسـه ليكمـل حديثـه.. ليتابـع في حمـاس: هـل يسـعك رؤيـة النـور المُتسرّب من ثقـوب النافـذة؟ والجزيئـات الدقيقة

المرافقة له؟ إنها جماعات الجن تعبر من خلاله للدخول إلى المنازل، أستطيع منعها بل وقد أفعل ما هو أكبر من ذلك.

- كيف؟

رفض الإجابة وأردف، إنها مزايا خارقة لا ينبغي أن تعرفها، لأنها قد تضرك.

أصرّ عليهِ لمعرفتها.. مقابلًا رفضًا وتكتمًا شديدًا منه..

سكت «فيصل» لدقيقتين.. ثم قرّر أن يلعب عليه لعبة صغيرة، قَلّبَ أوراق الملف بسرعة وأثناء تفحصه؛ قال: لديّ صديقًا يمتلك ذات قواك الخارقة بينما هو أفضل منك؟

ضحك المريض وردّ: لا يمكن إطلاقًا؛ أنا الوحيد الذي قد أُعطيَ هذه القدرة.

- لكن (صديقي) يستطع التحدث معهم بل ومجالستهم وهذا مما لا تتمكن منه؟

- يمكنني أن أفرق بين المؤمنين منهم والكَفرة وأيضًا بإمكاني لمسهم بيديّ وتوزيعهم بين الجنة والنار؟ هل تُصدق أن.... ثم سكت لوهلة، بعد أن استدرك خطة استدراجه، بدَا غاضبًا من نظراته التي يكاد أن يخنق بها الطبيب الذي يبتسم في برودٍ تام.

فيصل مُتسائلاً: هل تؤمن بالله؟

- بالتأكيد.

- هل تؤمن أن الحساب بيده وحده؟

- بالطبع.

- إذًا؛ تؤمن أن الجنة والنار بيد الله؟

-أجل. وبدا واضحًا عليه الانزعاج!

عـدّل فيصل جلسـته وقـال بنبرة جـادة: ما دُمـتَ تعلـم أن الله وحده الـذي يملـك مصـير الخلق بـين يديّه، كيـف لـك أن تزعم القـدرة التي لا يملكها سـواه؟

سـكت «المريـض» للحظـات وهـو ينظـر إلى الأرض، بـدأ في التعرّق بعـد أن انهـارت فكرتـه الرئيسـية لضعـف برهانه.

بعـد فـترة وجيـزة مـن الزمـن، قطـع صمتـه.. ليطلـب مـن الطبيـب تكـرار السـؤال بحجـة عدم سـماعه بشـكلٍ واضح محـاولاً بهـذه الحيلة كسـب وقـتٍ أكـبر للتفكـير في إجابة.. ليكـرر الطبيب سـؤاله متبسـمًا.

أمسـكَ المريـض رأسـه مُدعيًـا إحساسـه بـألمٍ شـديد بـه واحتياجه إلى الراحـة، ليسـمح لـه بالذهـاب إلى غرفتـه حتـى ينال قسـطًا مـن الراحة بعـد هـذه الجلسـة المُتعبـة والحـوار المزعج بالنسـبة لـه.. وبعـد خروجه مـن الغرفـة توقـف قليلًا ليبتسـم بعد إيقانـه بنجاح حيلتـه للهروب من هـذه المواجهة.

في المساء وبعد منتصف الليل تقريبًا، خرجت «ضيْ» من غرفتها قاصدة المطبخ لتجد باب غرفة والدها مفتوحًا، وهذا ما لم تعتده في مثل هذا الوقت.. بحثت عنه في أرجاء المنزل لتلمحه يتأمل بين يديه صورة تجمعه بها ووالدتها المتوفاة.. اقتربت منه: «لماذا لم تنم حتى الآن؟»

- عقلي مشغولٌ بك، أريد الاطمئنان عليكِ!

- أنا بخير؛ صحتي على ما يرام.. لا أشكو من شيء إطلاقًا.. الفحص الذي يرغبون في إجرائه لي (مجرد روتين) لا أكثر.. لا يمكن أن يغير شيئًا.. الطبيب «فيصل» قد أوضح أنه يرغب عن طريقه استبعاد تشخيص يشك فيه فقط.

- بما أنه إجراء معتاد، لماذا لا نبدأ به.. ثم إنه لن يضُرّك يا ابنتي؟ تعلمين أن «الطبيب» حريصٌ على صحتك ومهتم لشأنك ولن ينصحك عبثًا إنما يحاول مساعدتك ومساندتك للنهاية.

حديث والدها لم يقنعها أو يُغير رأيها؛ وفي صمتٍ رهيب غادرت المكان لتتركه مقهورًا ومتألمًا عليها..

IN LOVE WITH BOOKS
@freebooksf

خيانة

«صباح الخميس».. بدأ المرضى في التوافد على عيادات الأطباء.. فيصل الذي افتتح يومه بمريض (متوسط العمر مُتسخ الملابس وجهه شاحب وحول عينيه هالات شديدة السواد).

بعد دخوله غرفة العيادة، استمر في الوقوف جانبًا حتى أُذِنَ له بالجلوس، كان على عجلةٍ من أمره؛ قال بصوتٍ خافت: «يا دكتور أنقذني».

- كيف أخدمك؟

- أرغب أن تكتب في ملفي الخاص؛ يجب تنويمه هنا، وجودي في الخارج لا يُطاق!

تعجب «فيصل» من طلبه.. نهض من مكانه، أمسك بيده، ساعده على الجلوس بلطف.. وبعدها سأله «فيصل»: مما تعاني؟

- أرغب في الموت، أن تنتهي حياتي البائسة الآن..

- لماذا؟

- لا معنى للعيش.. لا قيمة للحياة!

- هل تراودك تخيلات أو وساوس؟

- مئات الأفكار تخنقني، تدور في رأسي.. «تتسعّر» لا أستطيع إخمادها؛ تسيطر علي لا أسيطر عليها.

- بمَاذا تُصنف مرضك؟ « الطبيب يتوقع مسبقًا الإجابة ذاتها »

- اكتئاب شديد؛ أشعر أن جسدي يرفض الحياة.. لا أرغب في تناول الطعام أو القيام بأي نشاط، لا أشتهي شيئًا.. لا أقدر على الابتسام حتى إن أجبرت نفسي، كأن شخصًا آخر يمنعني! أيامي تتابع ولا جديد يتخلّلها.. لا شيء مثير، أشعر أنني بلا شغف ولا أهتم فيما سيأتي.. نومي مُضطرب.. لا أحب شيئًا كما في السابق ولا شيء يُحدث فارقًا معي..

هناك فراغٌ عظيم يسحبني إلى أعماقه، أريد أن أرتاح لم أعد أَحتمل ولا أُحتمَل.

وما أن أنهى حديثه إلا وفاضت عيناه بالدموع.. مدّ «فيصل» إليه منديلاً، حاول تهدئته وطلب منه أن يرتاح لبعض الوقت؛ ثم سأله عن تركيزه واستيعابه للأمور؟ أجاب أن تركيزه أصبح أضعف بكثير عن السابق لكثافة أفكاره.

- ما أكثر ما تفكر به؟

- أوهام وشكوك؛ قد راودتني في الماضي.. «وكأنما طرأ في عقله فكرة، سكت لبعض الوقت»..

- أكمِل!

-هل أعتبره سرًا لديك؟

- بالطبع.

- قبل سنوات حضرتني - وساوس وأفكار - حول زوجتي وتصرفاتها.. حتى انتهى بي الأمر للشك في خيانتها لي.

-هل تبدو مثلما تفكر نحوها؟

- لا؛ إنها (امرأة) رائعة جداً.. لكنني لا ألبث إلا وتزداد شكوكي، ليدفعني هذا الكم الهائل من الأفكار على مراقبتها والتدقيق نحو تصرفاتها، والعبث في تفاصيلها، حتى إنني كرّرت تفتيش هاتفها النقال.

- هل أدنتها؟

- لا؛ وهذا ما يُثير غضبي، كل شكوكي تؤكد لي أنها تفعل لكنني لا أجد شيئًا يدعم ويؤيد أفكاري!

- ماذا حدث لاحقًا؟

- تغيّرت معاملتي لها، لأنني اقتربت إلى الثقة في شكوكي حتى ولو أنكر الواقع، أصبحت مع مرور الوقت لا أُطيقها، أراها خائنة تنتهز فُرصة غيابي.. لقد وصل بيَ الأمر للاستئذان من مديري في العمل، مُتعذرًا بأسباب واهية.. لأعود إلى المنزل بشكلٍ مباغت وأقبض عليها مُتلبسة، لكنني لا أجد شيئاً إلاّ أنها تقوم بمهامها المنزلية في تفاني..

لقد كُنت أمنعها من الذهاب إلى التسوق من شدة خوفي أن تلعب بذيلها.. بعد مدة بدأت السماح لها، ليس كرمًا مني.. إنما هي - خطتي الكبرى - لتتبعها والإطاحة بها في مركز التسوق

ربما أصطادها بالجُرم المشهود، لكنني أجد أيضًا أنها تتملص من الشبهات في كل مرة من العشر مرات التي لاحقتها فيها، تصوّر أن تخيلاتي قد أقنعتني أنها هي من تُراقبني وتعلم تحركاتي لتتظاهر بالحشمة والعفاف ولتمثّل دور الملاك المسكين حتى أنخدع بها.

- هل داخلك مقتنعٌ بخيانتها لك؟ أو أنها أوهام وكفى؟ «قاطعه الطبيب».

- لمدة عامين متواصلين كانت مُجرد أفكار تُغالبني وأغالبها، لأفعل ما فعلته حتى بدأت أستسلم لها لتتحول الشكوك إلى يقين تام!

- يقين؛ دون دليل قاطع؟

- أجل؛ مما دفعني إلى استراق السمع من خلف الباب على مكالماتها الهاتفية. لا أقبل تصرفاتي غير السويّة لولا مرضي الذي كان يدفعني لهذا، هل رأيت رجلاً عاقلاً يريد أن يثبت خيانة زوجته له دون برهان بيّن؟ أو يُحرّم عليها الخروج من المنزل ظنًّا منه أن أخلاقها مقصورة على وجوده كرقيبٍ لها.. وإنها فور خروجها ستركب الكثير من الأخطاء بلا حذر ولا مُبالاة، أو يُلاحقها في مجمعات التسوق كالأبله. الرجل الحقيقي والعاقل يجب أن يضع ثقته في زوجته التي يستأمنها على منزله وأبنائه.

- هل حدث ما هو أسوأ؟

أنزل رأسه نحو الأرض وأجاب في خجل «أجل»

- ماذا فعلت؟

- في مساء أحد الأيام، بينما كُنت أشاهد التلفاز سمعتها تتحدث في الغرفة وتضحك، اقتربت قليلاً، بدأت استرق السمع على محادثتها الهاتفية، لكن هذه المرة كانت مُختلفة.. كانت تُحادث شخصًا بصيغة (المُذكر) ليس كعادتها.. ذكرت اسمي أيضًا، تشكو له تغيّر سلوكي وطباعي وتُفسّر له تعبها من محاولتها تجاهل مراقبتي لها التي صارت تُضيّق عليها.. ثار غضبي لم أتمالك نفسي فتحت الباب بقوة.. أمطرتها بالألفاظ النابية من قذف وتجريح.. «كوني تأكدت أخيرًا من خيانتها لي، اصطدتها تُحادث عشيقها ظنًا منها أنني غافلٌ عنها».. لا ولم أكتفي بهذا بل ضربتها في مواضع مُتفرقة من جسدها، لم أتوقف عن ذلك حتى صرَخَت بصوت عالٍ، لتقول لي التقط الهاتف وتحدث إليه.. فعلتها لأجده أخاها الأكبر تشكوا له حالتي الخانقة وتبحث معه عن حلٍّ لي!

عندها لم تعد تحملني قدماي؛ أجل.. أدركت أن حياتي الزوجية انتهت وهذا ما حدث بالفعل.. لقد اصطحبها إخوتها إلى منزل عائلتها لتطلب الانفصال بالرغم من اعتذاراتي المتكررة والتي لم تكن مُجدية ولا مُقنعة.

من هنا استطاع الاكتئاب التمكن منّي، بالتحديد بعد انعزالي التام عن المجتمع إثر هذه الواقعة.. حيث سيطرت عليّ فكرة جديدة «أنَ من يراني في الشارع، يعلم عمّا حدث بيني وبينها» ليتطور فيّ وليصل بي إلى هنا.

ثمّ أجهش بالبكاء، قائلاً: أقسم لك أنني أحبها يا دكتور؛ أحبها جداً وغيرتي عليها شديدة.. لقد أسأت التصرف وأعلم ذلك الآن.

بدأ «فيصل» في تهدئته موضحاً له أن ما فعله لم يكُن غيرةً وحسب، إنما كان شكًا واتهامًا صريحًا لها.

طأطأ رأسه وقال: أقسم أنّني لا أستطع النوم ليلاً من تكاتف الهموم والأفكار والأحداث السابقة في عقلي.

- هل سبق لك أن تعاطيت حبوبًا مخدرة؟ بغضبٍ وانفعال مُبالغٍ فيهما رفض الإجابة، مُرددًا «إن هذا السؤال لإهانة كبيرة لي».

- ما هو سبب زيارتك الحقيقية للعيادة؟

- هل تُريد حقًا الحفاظ على حياتي؟ لتبقيني هنا تحت المراقبة، حتى لا أموت!

- ولماذا ستموت! هل حاولت الانتحار من قبل؟

- أجل؛ بالتأكيد.. قبل شهرين من الآن، وأتمنى ذلك في كل دقيقة أتنفسها، مثل أن يحترق بي المنزل ليلاً لأختنق وأُنهي هذا الأمر.. سبق وفعلت! لكن مع الأسف الشديد فشل الأمر، لقد أنقذني (رجال الدفاع المدني) أسرع مما توقعت بعد أن قاموا بإخماد النيران، وفي إحدى المرّات ألقيتُ بنفسي في الشارع أمام بعض السيارات المُسرعة بهدف إنهاء حياتي البائسة، لكن لم يُكتب لي الموت في تلك اللحظة.. فإنّ أغلب السيارات استطاعت تفادي الاصطدام بجسدي إلا واحدة خلّفت فيه بعض الكسور.. لم يتمكن شيء مني وهذا ما يُحزنني.

طلب (الطبيب) منه رؤية آثار الكسور والخدوش التي أُصيب بها، ليعلم حقاً أن هذا الشخص لا يُمكن إخراجه من المستشفى، لأن حياته مرهونة بمزاجه مما يجعله في غير مأمن على الاطلاق.. وليبدأ في إجراء بعض المكالمات الهاتفية بغرض التنويم، وبعد أن انتهى.. سأله: ما دُمت ترغب الانتحار، لماذا أتيت بنفسك إلى هنا لتطلب إيداعك داخل قسم التنويم تحت الرعاية المُشدّدة لمنعك من إنهاء حياتك ؟

- لقد ارتكبت خلال حياتي الكثير من الأمور السيئة، فكرت فيما لو تم تنويمي أنني سأُقابل داخل أقسام التنويم عددًا من المرضى المُكتئبين الذين ربما يتفوق سوء حالتهم عليّ، وهذا ما قد يعطيني دافعًا أو أملاً للتعافي من جديد على الرغم من أنني لا أتوقع ذلك

مُطلقاً.. لكن من يعلم؟ ربما تكون هذه هي المحاولة الأخيرة للعودة إلى طبيعتي كرجل بعيدٍ عن (الاكتئاب)؛ الذي أكل من سنوات عمره السابقة ولم يُبقِ له فيه من لذّة.

تفهّم «فيصل» رغبته؛ أنهى إجراءاته ثم صافحه مُتمنيًا له نجاح محاولته الأخيرة على حد وصفه، ليأتي الممرض لاصطحاب المريض ليُكملا ما تبقى من إجراءات الدخول، وليُغلقا الباب خلفهما.

أنهى «فيصل» عمله لليوم بتعبٍ وانتظار طويل لمكالمة من ضيْ أو والدها.. في طريق عودته للمنزل ما فارقته رغبته في الاطمئنان عليها.. وصل إلى المنزل ليجد والدته تشاهد التلفاز، قبّل رأسها وسألها عن أحوالها وعن أخيه «رائد»؛ أجابته.. «إنه مُنهمك في المذاكرة مع زملائه لاقتراب موعد الاختبارات».

بعد تناول (الغداء) اقترح فيصل على أمه اصطحابها إلى أحد المتنزهات الخضراء بعد أن يستيقظ من قيلولته، ليُنفّس عنها بدلاً من جلوسها أمام التلفاز مُعظم الوقت؛ وافقت بسعادة.. ليذهب إلى فراشه حتى ينال قسطًا من الراحة.

خرج مع والدته إلى المتنزه، طلب منها الانتظار لبعض الوقت بينما يمكنه الذهاب لأداء فريضة «العشاء».

شك

توجه إلى دورات المياه المخصصة للرجال؛ شرع في الوضوء وبعد أن بدأ (المضمضة) لمح ماءًا على ملابسه تطاير عليه من الرجل الذي يتوضأ جانبه، لم يُوبّخه لكنه توقف قليلاً لمراقبة تفاصيل وضوئه التي بدت غريبة بعض الشيء حيث يُبالغ في أخذ كميات كبيرة من المياه بين يديّه ليغتسل بها مبلّلًا ما حوله.. بعد انتهائه همَ بالخروج وما لبث لحظات إلا ورجع ليأخذ (غترته) المنسية مُعلقة أعلى الحائط، ليُباشر إعادة الوضوء من جديد وعلامات الامتعاض تُعكر صفو ملامحه.. ليستنتج «فيصل» ما يشكو منه هذا الرجل كثيرِ الوضوء.

عاود تكرار فعلته ما يقارب الخمس مرات، حتى استوقفه «فيصل» بأسلوب مُمازحٍ لطيف «هل توضأت لصلوات اليوم مرةً واحدة؟».

- أرجوك؛ لا تضع فوق همّي هم، هذا الأمر لا يتوقف عن التفاقم.

- ما الذي يجري لك؟

- منذ حوالي العام والوساوس قد ابتدأت تعصف بعقلي حتى أنّي لا أكاد أخرج من دورة المياه إلا وأشُك أن وضوئي قد نقض، لأكرره مجددًا أو أنسى أنني لم أغسل أحد أعضائي، مع علمي أني لم أنسى فما زال الماء يتصبّب منه لكنني لا أستطيع مقاومة الأفكار، فأستمرّ في إعادة الوضوء كما رأيت.

- كم من الوقت يستغرق الأمر معك يومياً؟

- نصف ساعة قبل الأذان.

- لماذا لم تعاود طبيبًا مختصًا للتخلص من معاناتك؟

- لا؛ الأمر بسيط.. ولا يستحق عناء الذهاب والرجوع للعيادات والالتزام بالمواعيد والأدوية.

- هل ترى أنّ الأمر لا يستحق بينما تضيع ساعتان ونصف من يومك وأنت تكرر الوضوء وتبلل جسدك بالماء إلى حد لا يُحتمل، بحيث أنك قادر على إنهاء هذا الشقاء بشكل تدريجي بعد زيارتك الطبيب المتواجد لخدمتك؟

- الأطباء النفسيّون مُتعجرفون بعض الشيء، هوايتهم صرف الأدوية دون الاستماع لشكوى المريض جيداً.. يدّعون أنهم يفهمون ما يُعانيه أكثر منه شخصيًا وهذا بحد ذاته هراء.

- هل ترى لو أنني عملت طبيباً نفسياً سأكون ناجحاً؟

- بالتأكيد؛ أنتَ رجلٌ ودود وأيّ مريض سيسعد بالتحدث إليك فأنا خلال الدقائق الماضية ارتحت إليك وأخبرتك ممّا أعاني بلا تفكير، لأنك بلا شك عرفت كيف تتواصل معي بشكل جيد.

- إنني طبيب نفسي حقيقي. «وابتسم له»

ذُهل الرجل وارتبك متأسفًا عما وصف به الأطباء النفسيين، وبرر ذلك بأنه كان منفعلاً وبدأ في الاعتذار بوجهٍ محمر من شدة الخجل.

قاطعة «فيصل»: لا عليك؛ كلامك قد يكون صحيحاً ويُمثّل بعض الأطباء النفسيين فمنهم الجيد ومنهم عكس ذلك، فهناك من يستمع إليك والبعض ممّن لا يفعل ذلك بالشكل الذي ترجوه وتتوقعه.. وأنا متأكد أنك قد أخذت انطباعك من تجارب الآخرين، ولا ينبغي لتجارب معدودة أن تُعمّم على البقية الباقية.. في كافة المجالات.

- يا رجل؛ إنك ساحر! هل يُمكنني حجز موعد في عيادتك ليتسنى لي تلقي العلاج المناسب وأعدك من الآن بالالتزام؟ إنك تعرف جيدًا كيف تكسب ودّ المريض بلطفك.

شكره فيصل على إطرائه، ورحب به وأطلعه على عنوان المستشفى وأكد له ضرورة زيارته ليستطيعا معًا القضاء على الوساوس قبل تطورها، وطلب منه ألّا يُعيد وضوءه والاكتفاء بالذي سبقه، ففعل ذلك واتجها لأداء الصلاة معًا.

انتقام

في «مساء الأحد» الهادئ، تلقى فيصل اتصالاً من قسم الطوارئ يُفيد بضرورة حضوره حيث أنه الطبيب الوحيد في الجدول المسائي.

بعد وصوله إلى المستشفى وجد سيارة الشرطة عند باب الطوارئ؛ علم أن الأمر لن يكون سهلاً.

بعد دخوله سلّمَ على رجليّ الأمن ليخبراه أنهما اصطحبا شابًا تعدّى بالضرب على أخيه التوأم.. وأوضحا أن له سوابق سيئة وأعربا عن استنكارهما ودهشتِهما لسماح الطبيب المسؤول عنه لهُ بالخروج من قسم التنويم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع برفقة ذويه.

ليستأذنهما «فيصل» في الجلوس مع المريض لتقييم حالته وليقرر الاجراء التالي، أخذ الموافقة ثم استمر في طريقه إلى العيادة للقاء المريض.

بعد دخوله رأى المريض، عرفه مبدئيًا لأنه قد لمحه عدّة مرات في قسم التنويم منذ سنوات.. لكنه لم يكُن مسؤولاً عن حالته ولا يعلم مما يشكو.

جلس فيصل مقابلاً له.. حيث كان مُقيّد اليدين وقد تم إعطاؤه إبرة مهدئة بعد انفعاله كما ذكر رجلا الأمن.

الشاب صغير في السن لم يتجاوز العشرين من عمره بعد.. يوجد جرح قديم في رأسه الخالي من الشعر، لم يجرؤ الشاب على النظر في عينيّ الطبيب منذ دخوله لكنه نظر مطولاً إلى الأرض.

سأله «فيصل» عما حدث لكن سؤاله بقي دون إجابه.. أخبره إذا استمر في الصمت أنه سيجبر إلى تسليمه لرجال الأمن للزج به في السجن مع المُجرمين بدل إيداعه بالتنويم مع المرضى النفسيّين؛ لبترك الخيار له.. شعر بالخوف وقال: هل رجلا الأمن في الخارج حتى الآن؟

- نعم؛ إنهما ينتظران تقييمي لحالتك، وفي حال أن تقييمي يوصي بوضعك في السجن لن يترددا بفعل ذلك مُطلقًا.

تغيّر رأي الشاب وقال: اسأل ما تُريد؛ سأجيب على أسئلتك لكن أرجوك لا تتركني أذهب إلى السجن.

- حسنًا؛ أخبرني عن سبب الجرح الذي في رأسك؟

- لقد كنت عدوانيًا منذ الطفولة؛ ويرجع الجرح إلى مشاجرة حدثت لي في المرحلة الثانوية والتي انقطعت على إثرها عن الدراسة.

فتح فيصل ملفه، قرأ بعضاً منه.. وعلق قائلاً: يبدو أنك لم تترك الدراسة بسبب الضرب فقط؛ ما قصة التخيلات التي كانت توافيك ذلك الوقت؟

- أجل؛ تحضُرني تخيلات كثيرة تجعلني أعتدي على زملائي في المدرسة بسبب أو بدونه، إنها تُقنعني أنّ ثمّة من يشتمني لأقوم مُسرعًا وأُبرحهُ ضربًا حتى يتصبّب منه الدم.

- إنه لسبب مُقنع لطردك من المدرسة، قُصّ لي بعضًا من تخيلاتك بالتفصيل؟

- قبل عدة سنوات كانت أختي تدرس بكلية الطب في سنواتها الأخيرة، وقتها حاصرتني تخيلات سيئة نحوها وحول علاقتها مع زملائها الأطباء، حاولت تجاوز تلك الأفكار ولم أستطيع حتى طردها خارج عقلي أو إهمالها.. تركتها تعصف بي حتى أتى ذلك اليوم السيئ.

- اليوم السيئ؟!

- تلك الفترة ومع ازدياد الأوهام التي صاحبتني.. ذهبت لاصطحابها من المستشفى إلى المنزل بعد نهاية يومها التطبيقي، تأخرَت في الخروج فترجّلت من السيارة، دخلت إلى المستشفى

للبحث عنها.. وجدتها تناقش طبيبًا حول أحد الحالات الخطيرة التي حضرت إلى الطوارئ للتو.. ومن هنا انفجر شيء ما في أعماقي، أغرقني بالأفكار، أوهمني أنها على علاقة لا شرعية مع الطبيب الذي يقف أمامها.. بعد أن وصلنا إلى منزلنا استغليت فرصة عدم تواجد أحدٍ من أسرتي.. دخلت إلى غرفتها مُسرعًا موجهًا إليها العديد من الاتهامات القاسية، ولم أكتفي بل بدأتُ في ضربها بدون رحمة رغم توسلها وصراخها وتذكيرها لي أنها أختي الكبيرة.. لم أستمع إليها واستمريت في ضربها حتى فقدت وعيها.. الكدمات تملأ جسدها، الدماء متناثرة في كل مكان.. بعد قدوم الإسعاف والشرطة اكتشفوا أنها قد ماتت بين يديّ ولم أدرك أنا ما الذي فعلته بها. تم إحضاري إلى هنا قبل سنوات وتقييم حالتي وتشخيصي بأنني مريضٌ نفسي «تتحكم فيني مخيّلتي ووساوسي الضالة ليُصبِح قسم التنويم هو منزلي الجديد لعدّة أعوام».

- لديك قناعة بمرضك النفسي؟

- لا؛ لكن كيف أقتل أختي التي تكبرني، اللطيفة معي دائمًا.. وأيضًا بلا رحمة ولا شفقة مني، إن هذا من أكثر ما يجعلني أتقبل فكرة المرض النفسي لأنها تخفف عني قليلًا من الشعور بالذنب.

استمر «فيصل» في قراءة بعض السطور ثم قال: مكتوبٌ هنا - في الملف - أنه مُنذ يومين سمح لك بالخروج في عطلة نهاية الأسبوع بعد رغبة ملحة من والديك، لكن ماذا فعلت لتجعل الشرطة تقبض عليك وتحضرك إلينا؟

- أبداً؛ بعد اصطحاب أبي لي إلى المنزل.. رحّب بي أفراد عائلتي ومرّ اليوم الأول يليه الثاني بسلام.. لكن في اليوم الثالث الذي هو اليوم لم تتركني الأفكار أمضي عطلتي بهدوء، بدأت الوساوس والأوهام تعصر مخيّلتي من جديد لدرجة لم أستطع مقاومتها؛ في عصر اليوم الثاني بينما كنت وحيدًا في فراشي وافتني مرة أخرى «بأن أبي وأخي التوأم يُخططان للانتقام مني بسبب ما فعلته في أختي قبل عامين، وأنهما يُريدان تقييدي وتعذيبي لأيام بلا رحمة ومن ثم قتلي»، حاولت طردها بعيدًا عني لكنها كلما أردت إبعادها أحاطت بي حتى أعمت بصيرتي وتمكنت مني، خططت لمباغتتهما قبل أن يتمكنا مني.

- هل فعلت حقًا؟

- أجل؛ بعد أن نهضت من فراشي باشرت الدوران في غرفتي الصغيرة، أفكر تائهًا ومذعورًا.. صوتٌ ما في داخلي يقول «أنهما قادمان لأجلي» ارتجفت كل أطرافي وتكاتفت مع وهمي.

- كيف تصرفت؟

- توجهت بعزمٍ إلى المطبخ لأخذ سكين كبير.. خبأتها خلف قميصي.. بحثت عنهما في حذر تام.. ظنًا مني أنهما يختبئان في مكان ما ليُخططا ضدي، وأخيرًا عثرت عليهما في غرفة استقبال الضيوف.. وما إن رآني أبي إلا ورحّب بي مُعربًا عن مدى اشتياقه لوجودي بينهم.. طلب مني الجلوس بالقرب منه.. ظننت لوهلة أني أخفتهما بعد أن قطعت اجتماعهما وأن الأصوات التي تتكلم في أذني كانت على حق بشأنهما.. انطلقت تجاه أبي بسرعةٍ عجيبة، أخرجت السكين.. غرستها في كتفه.. اقترب أخي مني ليحاول منعي.. طعنتها في فخذه بكامل قواي.. لم أتوقف إلا بعدما رأيت الدم يسيل حولهما.. صرخاتهما تملأ المكان.. كأنا يتألمان ويستفهمان عمّا فعلت ولِمَاذا فعلت!

- قتلت أختك.. طعنت اثنين من عائلتك؛ هل تُريد القضاء على جميع أفراد منزلك؟

صمت الشاب، لم يُجب.

حُباً للقراءة
IN LOVE WITH BOOKS

- هل أنت راضٍ عن نفسك؟

@freebooksf

- أجل؛ إن الأفكار صادقة.. هما يريدان قتلي، ما الذي تفعله أنت لو كنت مكاني؟ هل ترضى أن تكون لقمة سهلة أم تُبادر لينتهي خوفك؟

- لندمتُ على ما فعلت؛ هم لم يضروك بشيء حتى الآن ولا تتوقع خروجك من المستشفى بعد الذي فعلته كي لا تُسبب المزيد من المتاعب.

بعد سؤاله عن أدويته اتضح أنه لا يتناولها في الفترة الأخيرة، إنما كان يحتال على الممرضين وكذلك عند خروجه من منزله مما أدى إلى تمكّن الأفكار منه وتحكمها به حتى تصل الأمور إلى ما وصلت إليه.

أعطى «فيصل» أمرًا ليتم إعادة تنويمه والحزم عليه ليتناول علاجه حتى تستقر حالته.

خرج من العيادة ليُعطي رجُلَي الأمن تفصيلاً عن حالته والقرارات التي اتخذها حياله، أخبرهما أنه سيبدأ البحث في ملفاته ليرى من هو الطبيب المسؤول عنه، وليستفسر منه عن سبب سماحه لذويه باصطحابه خارج المستشفى، ووعدهما أنّ ما حصل لن يتكرر.. شكر تعاونهما وتبادلوا التحايا بينهم لينصرف كلٌ منهم إلى عمله.

مرّ المساء في هدوء عجيب.. كما مرّ ما تبقى من الأسبوع حتى أتى الخميس المُتعِب كعادته.

أوشكت ساعات عمله في العيادة على الانتهاء.. طرق المُمرض الباب بينما كان «فيصل» يستعد للخروج.. أذِن له بالدخول ليخبره إن هناك مريضٌ مُرتبكٌ بشدة وصل قبل قليل وإنه عازمٌ كل العزم على لقائك.. وقد أطلعته أن الوقت قد تأخر على ذلك.. - ليهمس في هدوء-: «بكل صراحة حالته مُستعجلة يبدوا مُضطربًا؛ هل أسمح له في الدخول أو أعتذر منه وأحجز له موعدًا جديدًا؟»

رحّب به فيصل على الفور، طلب من المُمرض أن يُدخِله وقام بإزالة حقيبته من على سطح المكتب وارتدى معطفه بعد أن خلعه ظنًا منه أن يومه قد انتهى في العيادة.

أنا السبب

دخل شاب في الثلاثينات من عمره، اتضح عليه الارتباك من نظراته.. صافح الطبيب وبعد ملامسة يديهما لاحظ «الطبيب» رطوبتها.. سأله: هل غسلت يديك قبل الدخول؟

- لا؛ إن جسمي يتعرق بشكل مستمر، كان هذا البلل جزءً من العرق.

أدخل يديه في جيوب ملابسه باحثًا عن شيء ما، فأخرج منديلاً من أحدهما ليمده إلى الطبيب: تفضل؛ لا تخجل يا دكتور، قُم بتنظيف يدك فذلك من حقك.

ابتسم «فيصل» وتناوله منه.

- ما سبب مجيئك إلى العيادة؟

قبل أن يُجيب بدأت أنفاسه تتسارع بشكل محسوس، تغيّر لون وجهه ليميل إلى الزُرقة الشديدة، تصبّب عرق جسده وكأنما استحم للتو!

اقترب الطبيب منه ليهدئ من روعه بينما كان يُردد «أنا السبب، أنا السبب»، أجهش في البكاء ولم يتوقف عن تكرار: «أنا السبب، أنا السبب»..

بعد لحظات استعاد هدوءه ورجع إلى حالته الطبيعية؛ ليسأله «الطبيب» بعد أن أعطاه كوبًا من الماء عن الذي حدث له قبل قليل؟

- في البداية.. كنت أتذكر مواقفًا صارت لي في وقت سابق لأبدأ في لوم نفسي وتحميلها المسؤولية وتوبيخها أيضًا.. كوني السبب الرئيس بها، لتتطور الأمور حتى سيطرت عليّ ذكريات أخرى لا تخصني أبدًا.. أقسو على نفسي بشدة على الرغم من أنه لم يكن لي فيها يد.

- ما طرأ عليك قبل قليل هل كان يخصك أم لا؟

فردّ ضاحكاً: تُريد أن أدهشك؟ ما حدث قبل قليل لم يكن بسبب الذكريات بل المستقبل!

- هلّا أوضحت لي ما تقوله؟

- بالطبع؛ في الآونة الأخيرة أصبحت أتخيل أمورًا ستحصل لي في المستقبل ليبدأ الهلع في السيطرة علي، وأخاف جدًا من كيفية صمودي أمامها.. فأتصور أني لن أجيد التصرف معها بشكل صحيح وأحاسب نفسي بشكل قاسي.. حتى تزداد سرعة نبضات قلبي وأتشنج أحيانًا ويتغيّر لوني ويبللني العرق كما رأيت.

- كم مرة في اليوم تراودك هذه النوبة؟

- مرة أو اثنتين.

- أخبرني عن الأمور المُستقبلية التي تُفكر بها؟

-غالباً تتمحور حول أحداث سيئة لم تحصل بعد.. والمؤامرات تشغل حيزًا كبيرًا منها، حيث أشعر أن هناك من يُدبر لي مكائدًا في المستقبل وأبدأ البكاء.. وكأنه وقع حقًا وانتهى، لكنه لم يأتِ أساسًا! أصبحت أتهرّب من التواجد مع الناس، أعيش في هلع شديد من أن يراني أحدهم وأنا أبكي أثناء حدوث النوبة.. الأمر بدا مقلقًا لي حيث بدأت الاعتذار عن الحضور إلى عملي لحرصي ألا يراني زملائي بهذه الحالة، لأنه يُخيّل لي أنه لو رآني أحدهم سيبدأ في الاستهزاء والشماتة بي وهذا ما يُخيفني بشدّة، بدأت في الاعتذار عن الاجتماعات العائلية بسبب النوبات المُفاجئة وأصبحت حبيس غرفتي.

- هل سبق وحدثت النوبة لك في حضور شخصٍ ما؟

- أجل؛ كنت مع أصدقائي.. خافوا في البداية من أن يكون قد أصابني مكروه ما وبعد تأكدهم من صحتي بدأوا في السخرية مني حتى بدأت الانقطاع عنهم.. لم أتواصل معهم مرة أخرى رغم اتصالاتهم المتكررة والتي أقابلها بالتجاهل لكسب راحتي الشخصية.

- هل من شكوى أخرى غير التي ذكرتها؟

-أجل؛ بدأت في البكاء بسبب ودون سبب، لو رأيت قطًا ميتًا في الشارع لبكيت عليه، أو شخصًا يبكي في برنامج تلفزيوني في فيلم سينمائي أو مسلسل درامي.. هذا الأمر يُسبب لي الكثير من المتاعب ويُحرجني فعلاً، صرت لا أنام الليل.. أسهر بالأيام وبلا سبب.

تفهم «فيصل» شكوى مريضه.. بكل هدوء ثم بدأ في توضيح الأمر له وكيف سيتم علاجه وعن التزامه به، وحول أهمية رجوعه إلى العمل بعد ظهور مفعول الدواء عليه ليستعيد حياته الطبيعية.. سعِد المريض بلطف طبيبه وشكره بامتنان ووعده أن يلتزم قدر الامكان حتى يتخطى هذا الهلع المؤذي.. وخرج على عكس ما دخل به تماماً.

في يوم الجمعة وبعد صلاة العصر بالتحديد.. اتصل «فيصل» بوالد «ضيْ» ليطمئن على صحتها وليعرف آخر المستجدات التي تخص قرارها حول إجراء الأشعة المقررة.. رحب به الأب واعتذر منه على الانقطاع، وأخبره أن ابنته العنيدة في طريقها لتقبل فكرة مجيئها إلى المستشفى وعمل الفحوصات اللازمة التي أوصى بها «فيصل»؛ فرح كثيراً بالخبر المُفاجئ ورحب بهما وطلب منه أن يُخبره مُسبقًا بموعد مجيئهما في حال تأكد من موافقتها.

أكد والدها إصراره على إقناعها.. وشكر اهتمام فيصل ودعمه الذي يُشعره بالحرج منه كثيرًا لتنتهي المكالمة..

مـرّت عطلـة نهايـة الأسـبوع بسرعـة فائقـة كالعـادة.. ليبـدأ أسبوع جديـد بنهايتهـا.

في صبـاح الأحـد وبعد اجتماع الأطبـاء الصباحي افـترق كلٌ منهم إلى العمل المـوكل إليه لهـذا اليوم.

في طريقـه إلى غرفـة الاسـتراحة التقـى «فيصـل» زميلـه «زيـاد» الذي عـاد مـن الإجـازة بعـد قـدوم مولـوده الجديـد، اسـتقبله بالأحضـان مهنئًـا لـه بطفلـه الأول، اتجهـا معًـا لاسـتراحة الأطبـاء التي أعـدّا فيها كوبـين مـن القهـوة وليُحـدّث كل منهـما الآخـر عـمّا واجهـه خـلال الأسـبوعين الفائتـين واتجهـا للعيـادة الخاصة بفيصـل.. ليبـدأ التحدث عـن قصـة «ضيْ» وليتلقى المشـورة من زميله حيـال ما يفعله، وليشـكو إليـه رفضهـا بـدء الفحوصـات حتى قطـع حديثه صـوت البـاب الذي يطـرق، نهـض «زيـاد» لفتحـه وإذْ بإحـدى المُمرضـات تُلقـي السـلام عليهـما ثـم تسـأل فيصـل: هـل بإمكاننـا أن نأخـذ سـاعة مـن وقتك؟

- لماذا؟

- لا أعلـم؛ كل مـا أعرفـه أن رئيـس القسـم يـود تكليفـك في أمـر مُسـتعجل وطلـب منـي حضـورك العاجـل.

أخبرهـا أنـه سـيتبعها بعـد لحظـات إلى مكتـب الرئيـس، أنهـى قهوته على عجـل لينهض مـن مكانـه واعـداً «زيـاد» بأنه سـيكمل لـه القصة لاحقًـا، وانطلـق في الممـر مُتجهًـا إلى مكتـب الرئيـس متعجبًـا مـن اسـتدعائه المفاجـئ.

بعـد دخولـه إلى المكتـب نهـض الرئيـس مُرحبًا بـه، ومعتـذرًا منه على إزعاجـه بلا سـابق إنذار.

- لا عليك؛ لكن ما القصة؟

- أعـرف أن اليـوم ليس يـوم عيادتـك المخصص لاسـتقبال المرضى، لكـن قريبـة زوجتـي أتـت إلى المستشـفى اليـوم وقـد أوصتنـي عليهـا جيـدًا، تعلـم أني رئيـسٌ عـلى الجميع ما عـدا زوجتـي (قالهـا ضاحكاً)، قريبـة زوجتـي اختارتـك عـلى وجـه الخصـوص وبالاسـم لتستشـيرك في حالتهـا، رغـم إخبارنـا لهـا بـأن اليـوم ليـس يـوم عملـك في العيادة، لكنهـا أصرت وبشـدة مُتعـذرةً ببُعـد منزلهـا عـن المستشـفى وأنهـا لـن تسـتطع القـدوم يـوم الخميـس في موعـد عيادتـك.. هل تقبـل أن نأخذ مـن وقتـك بعض الشيء للجلـوس معها ومعرفة ما تشـكو منـه؛ أم لا؟ الأمـر عائد إليـك أيهـا الطبيب الشـاب.

- مـا دامـت اختارتنـي دون غـيري فلـن أُهمِـل رغبتها، ولـن أجعلها ترجـع خائبـة.. سـأذهب إلى المكتـب المجـاور وبإمكانك إرسـالها إليّ.

شكر الرئيس فيصل على سعة صدره وتقبله للأمر ونبّهه قائلاً: عليك أن تتوقع أي شيء منها، فتصرفات هذه المرأة غريبة بعض الشيء.

ابتسم فيصل وهو في طريقه إلى الخروج وقال: وظيفتنا هي التعامل مع الحالات الغريبة؛ لا جديد.

بالفعل دخل فيصل إلى المكتب، جلس على الكرسي في انتظار المريضة المُفاجئة التي لم تجعل انتظاره يطول حتى بدأت تطرق الباب بشدّة فأذِن لها بالدخول.

غبار على الطاولة

دخلت امرأة في منتصف الأربعينات من عمرها، تفوح منها رائحة النظافة لتملأ الغرفة.. بعد التحية والسلام؛ طلب منها «فيصل» الجلوس.

أخرجت قطعة قماش من حقيبة كبيرة كانت بحوزتها، وبدأت في ضرب الكرسي ضربات مُتعددة.

أثارت عجب «فيصل» ليسألها حول السبب الذي دفعها لفعل ذلك؛ قالت: أنا حريصة أن يكون المكان نظيفًا؛ لن أجلس عليه وهو مُتسخ.

- لكنه نظيف! هناك عمّال متخصصون بتنظيف كل ما في هذه الغرفة بشكل يومي.

- وهل تظنهم نظفوها بإخلاص؟

ابتسم فيصل ليسألها عن سبب قدومها؛ خلعت النقاب عن وجهها وابتسمت له واتضح من ابتسامتها مدى التشوّه الذي لحِق أسنانها.

- ما الذي حدث لأسنانك؟

- إنه القلق الشديد والتفكير المُستمر؛ أُفكر في كل شيء وأدقق بصغائر الأمور قبل كبائرها.. لا أرتاح إن رأيت شيئاً في غير محله، إن شغفي هو الترتيب والترتيب الزائد.

لم تُنهِ كلامها بعد.. حتى نهضت من مكانها مُتجهة إلى «فيصل» الذي ارتاب من قدومها إليه.

استأذنته لتقوم بتعديل معطفه الأبيض الذي كان يميل باتجاه أحد الجانبين وهو يرتديه، وترتيب أقلامه على المكتب بعد أن كانت مُبعثرة، ووضعت الأقلام بشكل مثالي بجوار هاتفه المحمول ورجعت لمكانها.

كل هذا حدث وسط ذهول وصمت من «فيصل».

- القلق والاهتمام الزائد جعل الأطباء يوصوني بارتداء «عضّاضة» في فمي أثناء نومي كيْ تحمي أسناني التي أضغط عليها بقوة شديدة كلّ ما بدأت في التفكير بأي أمر ممّا سبّب احتكاكات متعددة فيها. (قالت هي).

أراد فيصل طرح سؤال جديد حتى لاحظها تُخرج قطعة القماش ذاتها لتقترب من المكتب وتبدأ في مسحه، مُعقبة على ذلك «غبار غبار، الكثير من الغبار في كل مكان، المكان مُتسخ! كيف تسمونها مستشفى؟ إنها مُقززة».

طلب منها فيصل الجلوس مكانها وإيقاف حركتها الزائدة ليصل معها إلى نقطة وفاق، استجابت لذلك وهي مُكرهة.

- هل مشكلتك الرئيسية هي الوسواس أم القلق الزائد؟

- لا هذه ولا تلك.. سأخبرك بكل شيء لكن بشرط!

- تفضلي؟

-أرجوك؛ رتّب شعرك قليلاً إنه يميل من المنتصف إلى الجهة اليمنى وهذا غير عادل.. اجمعه في المنتصف.

- دعي عنكِ شعري وأخبريني!

التزمت الصمت مُحدقةً بهِ.. وكأنها تنتظره ليُنهي ما طلبته منه، وهذا ما فعله فيصل في النهاية مُقدماً تضحيته في سبيل معرفة مشكلتها الحقيقية.

وبعد أن قام بترتيب شعره كما طلبت، نظر إليها خافضًا رأسه ليُريها إيّاه قائلاً بلهجةٍ حازمة: هل هو جيد الآن؟ هل سنُكمل ما جئتِ لأجله؟ أم سنمضي جلستنا بترتيب المعطف وتهذيب شعري ومسح وتنظيف الكراسي والطاولات؟

بعد صمت قصير؛ قالت: في الماضي وعندما كنت طفلة تم التحرش بي منَ أحد أقاربي الذي كان يجدُر بهِ حمايتي! من بعدها صار لا راحة لي في الجلوس مع أيٍّ من أقاربي مهما كانت صفتهم، بدأت تغزوني الوساوس والشكوك الغريبة والسيئة في ذات الوقت..

- مثل ماذا؟

- تزوجت.. وبعد أن أنجبت طفلتي، قررت الانفصال عن زوجي.. أصبحت أكره اقترابه من ابنتي!

- من ابنتك!!

-أجل.

- كم تبلغ من العمر؟

- أربعة أعوام.

- هل تنفصلين عن زوجك لخوفك أن يُلحِق الأذى بابنته صاحبة الأربعة أعوام كما حدث لكِ في طفولتك؟

- أجل.

- لكنها صغيرة جدًا، زوجك لا علاقة له بما حدث لكِ في طفولتك وليس شرطًا أن يشابه قريبك.

-أعلم؛ لكنني لا أستطيع إيقاف هذه الأفكار رغم محاولاتي الشديدة.

- هل تريدين إضافة شيء أخر؟

ـ أجل؛ تزوجت أربع مرات وانفصلت عنهم جميعًا لذات السبب!

- حقيقة هذهِ أم مُجرد تخيلات؟

بصوت غاضب؛ قالت: لم أتعنّى الحضور إلى عيادتك لتنعتني

بالكاذبة، ولا حاجة لي في ذلك.

اعتذر لها وأوضح بأن ردّة فعله كانت لصعوبة تصديق هذا الشيء وليس شكًا منه أنها كاذبة.

- هل تُريد أن أدهشك أكثر؟

- أكثر من ذلك؟ هاتِ ما لديكِ!

- لدي ابن في العاشرة من عمره، إني أتجنب الجلوس معه وحيدةً!

(وضع فيصل رأسه على الطاولة مستندًا على يده ومحدقًا بها بغرابة).

- أعرف أنه ابني، لن يضرني أو يضر أخته وأعلم أن أفكاري ومخاوفي حياله كاذبة وليس لها أساس من الصحة، لكني فقدت السيطرة عليها تمامًا وصارت تؤذيني علاقتي مع ابني و أقاربي وهذا الذي جئت لأجله، وسواسي ونظافتي الزائدة وحرصي على الترتيب شيء بسيط أمام هذه المشكلة العويصة.

سكت فيصل قليلاً، بدأ في التفكير لكنها قاطعته كعادتها.. حيث نهضت مُسرعة واتجهت إلى ستائر الغرفة، وبدأت في ترتيبها قائلة بأنها في وضعها السابق تُشعِرها بانعدام الراحة ويجب أن يكون كل شيء مُرتباً حتى لا يُلهيها ولتستطيع التركيز معه.

سئم «فيصل» من حركتها الكثيرة ومقاطعتها المستمرة له، لكن
لم يُظهِر ذلك بل أخبرها أنه سيصف لها أدوية تساعدها على تخطي
مشكلة الوساوس والترتيب الشديد التي تمر بها ولتقوم بتهدئة
الأفكار والتخيلات التي تضايقها وتود التخلص منها، ليعطيها
موعدًا بعد عدة أسابيع لتراجع عيادته وليطمئن على فاعليتها معها
وليرى إن استفادت منها أو يعمل حينها على تغييرها.

نهضت من مكانها بعد أن استلمت وصفة الدواء.. لتذهب بها
إلى الصيدلية وأيضًا ورقة موعدها القادم.. بدأت في شكره وعبّرت
له عن امتنانها له لقبوله الجلوس معها خارج وقت عمل عيادته
وبشكل مفاجئ ولتحمّله تصرفاتها التي اعترفت بغرابتها وعدم
قدرتها في السيطرة عليها، وقبل خروجها توقفت قبل أن تفتح الباب
ووضعت حقيبتها الكبيرة أرضًا..
وبدأت في تنظيف مقبض الباب مُعلّقة: «لا أعرف كيف تضعون
أيديكم على هذه القذارة، إنه مليء بالجراثيم والعشرات من الأيدي
تستخدمه دون تنظيف من يعملون هنا!».

«فيصل» يشاهدها ويبتسم حيث لم يجد ما يقوله، بعد انتهائها من
مقبض الباب وفتحها إياه توقفت قليلاً؛ سألها «فيصل»: ماذا بعد؟

- هناك بعض الغبار على أرضية المدخل وهذا لا يُناسب مكتب حضرتكم، سأُحضر شيئًا ما لأنظف به.

نهض « فيصل » من مكانه ضاحكًا؛ وقال: لا لا أرجوك.. يكفي، سأنظفها بنفسي، لا تُتعِبي نفسكِ.

ضحكت؛ وقالت « حسنًا؛ سأتركها لك.. لكن يجب عليكم طرد جميع عاملي النظافة في المستشفى فهم سيئون للغاية».

- حسناً؛ سنبحث الأمر.. لا عليكِ التزمي بالأدوية التي وصفتها لكِ وفي المرة القادمة ستجدين ما يرضيكِ.

انصرفت وأخذ «فيصل» هاتفه النقال وأقلامه واتجه إلى مكتب رئيس القسم، وبعد دخوله.. طلب منه الرئيس الجلوس ثمّ قال ضاحكًا: يبدو أنها استنفذت طاقتك بالكامل.

-عندما وصفتها بالغريبة، لم أتوقع أن تكون على هذه الصورة.. لم أستطع إكمال سؤالين متتاليين دون أن تُقاطعني بحركتها الكثيرة وهوسها الشديد في التنظيف.. المرة القادمة لن أستقبلها في العيادة إلا بعد أن أُدخِل شركة التنظيف بكامل أفرادها إلى العيادة لتعقيمها قبل أن تدخل إليها.

ضحك الرئيس وشكر صبره، ووعده أنها إذا جاءت المرة القادمة في وقت خارج موعد عيادته.. لن يسمح لها بالحضور ولن يستدعيه ويطلب منه الجلوس معها.

قال «فيصل» ضاحكاً وهو يفرك مقدمة رأسه بأطراف أصابعه ليُخفف الصداع الذي أصابه: أتمنى ذلك؛ لكنني أعلم أنها لو أتت غدًا ستسمح لها وستستدعيني لأنها أتت بواسطة سلطة أعلى منك كما ذكرت أنت «يقصد زوجته».

ضحكا واستأذن فيصل للانصراف فأذِن له.

في نهاية عمله هذا اليوم المزدحم بالتنظيف والترتيب وعند تشغيله لسيارته، وَرَدَه اتصال من والد ضيْ، سارع بالرد عليه مُرحباً به.

أخبره الأب أن ضيْ وافقت أن تأتي إلى المستشفى لعمل الفحوصات اللازمة والتي أوصى بها.. وأضاف أنها وافقت فقط لتُرضي والدها وهو يُريد أن يُنهي الموضوع بأسرع وقتٍ مُمكن قبل أن تُغيّر رأيها وهذا متوقع منها لعدم قناعتها بالزيارة.

أضاف فيصل تأييده لكلام الأب، ومحاولة إحضارها إلى المستشفى في القريب العاجل.. وقال إنه سيباشر الاتصال بصديقه طبيب الأشعة حتى يرتب موعدًا قريبًا لها.. ليشكره وليخبره أن يرسل له موعد الزيارة برسالةٍ نصية كونه سيدخل اجتماعًا بعد قليل.

فور إنهاء المكالمة اتصل بزميله الدكتور سعد واطلعه على مستجدات «ضيْ» وطلب منه أقرب موعدٍ ممكن.. وبعد أن اطلع على جدوله وقائمة مهامه أخبره أن أنسب وقت قريب بالنسبة له هو في صباح يوم الخميس.. وهو اليوم الذي يوافق عيادته أني أنه لن يستطع التواجد مع ضيْ ووالدها أثناء إجراء الأشعة ليتأكد من تشخيصه.. لكنه وافق على الفور كون الأمر لا يحتمل أي تأخير.. فاتفقا على الموعد.. لتنتهي المكالمة بالامتنان والتحايا.

وعلى إثره أرسل «فيصل» رسالة نصية للأب يُفيده فيها بموعد الزيارة والذي يصادف عيادته مما سيشغله عن مرافقتهما لاستكمال الفحوصات معهما مع كامل أسفه.

في يوم الثلاثاء كان فيصل مناوبًا حتى صباح اليوم التالي بقسم الطوارئ الخاص في الطب النفسي، وأثناء جلوسه بعد منتصف الليل في مكتبه وهدوء القسم وخلوّه من أي حالة جديدة وردته مكالمة من قسم الطوارئ العام الموجود في المبنى المُجاور يطلبون منه الحضور لتواجد شخص غريب الأطوار يعتقدون أنه مريضٌ نفسي.. وعند سؤاله لهم عن إمكانية إرساله إلى مبنى طوارئ الطب النفسي أفادوه بعدم مقدرتهم لرفض المريض الحركة وصعوبة إقناعه، أخبرهم أنه سيكون لديهم بعد دقائق معدودة.

قبل خروجه من القسم أخبر المُمرض «صالح» أن يستعد لتلقي مكالمة يطلب فيها منه إرسال سيارة إسعافٍ قد يحتاجها لنقل شخص جديد إلى طوارئ الصحة النفسية؛ لينطلق سيرًا على أقدامه تجاه المبنى الآخر.

بعد وصوله إلى الطوارئ المُزدحم بين حالات مليئة بالدماء والجروح وصلت على الفور إثر اصطدام سيارتين.. وهناك من يشكو من ألم بطنه ومن أُصيب بكسر في كاحله إثر تدخل عنيف في مباراة لكرة القدم وغيرهم وغيرهم.

وأثناء تخطّيه لكل هذا الزحام وصل إلى الطبيب الذي هاتفه وبعد التحية، سأله عن المريض وعن قصته؟

سقطتُ على إصبعي

- المريض جاء قبل عدة ساعات وكان يشكو من ألم في مفصله، وبعد إجراء الأشعة على المنطقة التي يشكو منها اتضح أنها سليمة لاضرر فيها، وعند إخباره ذلك رفض بشدة مُدعيًا أننا لا نفهم مشكلته، وطلب أن يباشر حالته طبيب أكثر خبرة وعلمًا منا.. وبعد ساعة اختفى من سريره واتضح أنه هرب من المستشفى دون أن يُخبر أحدًا، وعاد قُبيل صلاة المغرب يشكو من إصابة في كاحله الآخر، وعند تجاهلنا إياه كونه يتلاعب بنا بدأ بعمل تصرفات غريبة وسيئة، مما دعانا لعمل أشعة لكاحله الآخر وتأكدنا من سلامته، وطلب منّا أن يرتاح قليلاً على السرير فسمحنا له.. كوننا لم نملك الوقت للتفاهم معه لازدحام القسم بحالات طارئة والتي ينبغي التعامل معها على الفور، لنتركه على السرير.. لكن ما لبث حتى أتتنا بعض الشكاوي من عدّة مُمرضات بعد أن بدأ التحرش بهن، وهذا الأمر لايُمكِن أن نرضى به مُطلقًا ممّا جعلنا نحاول إخراجه فرفض بشدّة وبدأ يتفوّه بكلام غريب جعلنا نشك في صحته العقلية، فاضطررنا للاتصال بك وإخبارك بضرورة قدومك لإنهاء هذا الأمر، وإتاحة السرير لمن يحتاجه حقاً بدل جلوسه به دون أي فائدة.

- حسنًا؛ أخبرني بمكانه وسأذهب إليه بنفسي وأعدك أن أُنهي الأمر.

بعد معرفة مكانه ورقم سريره اتجه إليه «فيصل» مُسرعًا.. فتح الستائر المحيطة به.. ليجد نفسه أمام رجل يبدو له في منتصف الخمسينات من عمره بحالة رثّة وملابس مُتسخة.. قام بالسلام عليه واستأذنه الجلوس بجواره؛ فأومأ الرجل برأسه موافقًا له.. سحب كرسيًا صغيرًا وجلس جانبه.

- ما قصتك؟ لماذا تقوم بإزعاجهم هكذا؟

-أنا شخص من عائلة كبيرة وغنيّة.. أتيت فقط لأرى إن كان بإمكاني الاطمئنان على كاحلي ومن ثم الرحيل.

- ولكنك لم ترحل؟

- لم أطمئن بعد؛ يجب على مدير المستشفى أن يأتي بنفسه لإجراء الفحوصات اللازمة لي وإخباري عن سلامة كاحلي، دون ذلك لن أغادر المستشفى مُطلقاً.

- هل أنت متزوج أو لديك أبناء؟

- تزوجت سبع مرات وفي ذمتي أربع زوجات وكل واحدة من السبع تنتمي لجنسية مُختلفة عن الأخرى.. ومن الأبناء لدي ما يفوق الثلاثة والأربعين ولداً وبنتاً.

- سبع نساء حقاً؟

-أجل؛ هل تُريد رؤيتهن؟ همّ في إخراج محفظته وتفريغها من الكثير من الصور والأوراق القديمة رغم رفض فيصل أن يرى صور زوجات الرجل الذي ألحّ بشدة.. بينما هو يُصِر على رؤيته للصور إذْ بصورة تسقط أرضاً وبعدما التقطها «فيصل» إذْ بهِ الرجل نفسه لكنه مختلف عما هو عليه الآن إذْ ظهر فيها كثيف اللحية.

أراه إيّاها وسأله لماذا حلقتها بالكامل ولم تُبقي شيئاً من الشارب أو اللحية؟

- كيْ أتوارى عن الأنظار!

- وهل تظنك الآن متخفيًا بشكلٍ جيد؟

-اسأل نفسك!!؛ لم تكن لتعرف أنني كنت مُلتحيًا في السابق مما يؤكد استطاعتي التنكر بنجاح تام.

- فعلاً أقنعتني؛ حسناً لمْ تُخبرني عن سبب تخفّيك؟

- أنا أملك قدرات خارقة.

- أووه وما هي؟

- توقعت أنك طبيب ذكي عندما رأيتك لكنك بدأت في تخييب ظني، ألم تستغرب كيف أصبح لدي ثلاثٌ وأربعون ولداً؟ إنه بسبب ما أملكه من قدرات هائلة.

فهم فيصل مقصده، وسأله: «كم عمرك؟».. أجاب أنه في منتصف الخمسينات.

-كم عمر أكبر أبنائك؟

- عشرون عاماً.

طلب فيصل منه أن يُريه صورة لابنه الأكبر إذا كانت بحوزته الآن، وافق على الفور وأخرج هاتفه النقال ثم قال «لقد نسيت رمز الدخول».

- حسناً؛ لن نحتاج صورته.

وما لبث ثوانٍ إلا وقال: «تذكرت رمز الدخول».. ليقوم بإدخاله بشكلٍ صحيح ويبدأ البحث بين الصور والفيديوهات في الألبوم.

ثمّ طلب من فيصل مشاهدة إحدى الفيديوهات وهو في أحد المطاعم ويقول في الفيديو أنه ابنه الأكبر وقد دعاه إلى طعام العشاء وقام بدفع الحساب وهو فخورٌ بذلك؛ وفي نهاية الفيديو ظهر الرجل المقصود ليندهش الطبيب. وقال: « أعد مشاهدة الفيديو وتأكد بأنك تقصد فيه ابنك رجاءً».

ضحك الرجال وقال «انظر إليه وشاهده مُجدداً».

سبب تعجب «فيصل» أن الرجل الظاهر في المقطع لا يبدو في العشرينات من عمره بل تجاوز الخمسينات حيث يستحيل أن يكون

ابنه، عرف أن هـذا الشـخص يواجـه تخيلات وأوهـام عميقة بـل قام بتصديقهـا وإدخالهـا إلى واقعـه وتعايـش معهـا كـما يبدو.

- لا يبـدو صغـيرًا في العمـر كـما ذكرت بـل إنه أكـبر منك عمـرًا، إن شعر رأسـه ممتلئ بالبياض.

- أجل؛ هو يبدو أكبر من أقرانه عمراً منذ طفولته!

- ما سبب محاولاتـك في التخفـي رغم أن قـواك الخارقة كـما فهمت لا تـؤذي أحداً؟

- لقـد تعرّضـت إلى محـاولات عـدّة للقتـل وأعلـم أننـي مراقـب من عـدو مجهـول.. وأن هنـاك مؤامـرات تُحـاك من حـولي والتـي تهدف إلى النيـل مني!

- اذكـر لي أحد المحـاولات التي تعرّضـت لها والتـي كادت أن تؤدي بحياتك؟

- لكن الأمر سرٌ بيننا؟

- بالطبع.

- قبـل عـدة سـنوات كنـت على متـن إحـدى الطائـرات في رحلة من الرياض إلى مـصر، حينهـا أتـى إليّ قائـد الطائـرة بنفسـهِ، ورحّـب بي ودعـاني إلى مشـاهدة منظـرٍ خلاب، اسـتجبت لـه ورافقته بـكل سرور ولم أعلـم أنـه ينتمـي إلى أعدائـي ويبتغـى إيذائـي لكنننـي أحسـنت النية للأسـف.. وبعدما مشـينا إلى مُقدمة الطائرة قام بإعطـاء أمر إلى الموظف

أن يفتح باب الطائرة أثناء تحليقها، وبعد أن قام بفتحه بصعوبة بالغة بسبب الهواء الشديد اقترب هو من الباب المفتوح وقال لي: «اقترب لترى هذا الجمال من هنا».. وبعد أن اقتربت منه وكنت متمسكاً بمقبض الباب من باب الحيطة والحذر من الهواء الشديد الذي يضرب في جسدي من جميع الجهات فوجئت بما حدث للأسف.

- وما الذي حدث؟

- لقد قاما بدفعي هو والموظف الذي اتضح أنه ينتمي إلى العدو نفسه، دفعاني من الطائرة.. أتصدق ذلك؟

- والطائرة محلّقة؟ أم أنها لم تُقلِع بعد؟

بنبرةٍ غاضبة؛ قال: يبدو أنك ستستمر في تخييب ظني بذكائك الهابط يا دكتور؛ لقد كانت مُحلقة على ارتفاع كبيرٍ جداً وقاما بدفعي من ذلك الارتفاع!

- أصدقك؛ كيف لا! إن من يسقط من الدور الثاني من أي مبنى متوسط الارتفاع يتأذى جسديًا بشكل بالغ وواضح.. فما بالك بمن سقط من مسافة هائلة كما حدث لك!

- ما الذي تريد قوله؟

- لابد من وجود إصابات عديدة بجسدك، وأيضًا بعض الكسور ومن الغريب أن جسمك لم يُشل تمامًا عن الحركة.. لقد بقيت حيًّا وسليمًا بعد سقوطك.. ولا أثر عليك.

- بسبب قواي الخارقة؛ أصِبت أثناء ارتطامي العنيف بالأرض وكُسِر إصبع قدمي الصغير.

- فقط إصبع قدمك الصغير؟ «قالها ساخرًا»

- أجل؛ وقد أحزنني ذلك.

- هل أستطيع مشاهدته لو سمحت؟

رفع قدمه وأبرز إصبع رجله الذي كان يخلو تمامًا من أي تدخل جراحي.

- لكنه يبدو سليمًا؛ أنت متأكدٌ أنك مصاب في هذه القدم أم الأخرى؟

- أجل، لكن تمت معالجته وعاد إلى وضعه الطبيعي.

- كيف عالجته؟

- لقد سقطت في أرضٍ مصرية، قمت حينها بالاتصال بزوجتي الثانية - مصرية الجنسية - وطلبت منها أن تأخذني إلى المستشفى لكنها قامت بتحذيري، أنه قد تم الدفع للأطباء في القاهرة بعملٍ (بِسحر) وحشوه داخل إصبعي للتحكم بي ولم أذهب إلى المستشفى.

قال فيصل ساخرًا: تم الدفع لكل أطباء القاهرة؟ يبدو أنك مهمٌ للغاية.. حسنًا؛ ما دمت لم تذهب إلى المستشفى فكيف عالجته؟

- درستُ الطب في السابق، تعلمت كيف أقوم بعمل الجبيرة.. ووضعت قطعة من الخشب داخل إصبعي كيْ يستقيم من جديد.

- قطعة من الخشب وداخل إصبعك؟ بدأتُ بتصديق دراستك الطب سابقاً.

ضحك الرجال وهو يشعر السخرية من الطبيب على كذبته..

- وماذا تُريد الآن! بعد أن تمّ التأكد من سلامة كاحليّك؟

- أن يتم تنويمي في قسم الجراحة بالأعلى.

- لماذا؟

- لأقوم بإرسال رسالة إلى زوجتي الرابعة حتى تُشفق عليّ وتأتي من بلادها لزيارتي.

- وأين بلادها؟

- المغرب؛ إني أحبها جدًا.. لكن الخصام حالَ بيننا ورحلت طالبةً الانفصال عني وأنا نادم الآن وأُريد عودتها ولم أجد غير هذه الحيلة.

سكت «فيصل» بعض الوقت؛ وبدأ في التفكير وهو يحدق في الرجل الذي بدا متوترًا بعد أن كُشفت خطته.. ثم قال: لدي فكرة أفضل لك.

- أخبرني إياها؛ أرجوك.

- سنقوم بتنويمك في قسم الجراحة كما ترغب؛ لكن هل نضمن أنهم يصدقون حديثك وقصصك ومغامراتك ويقومون بحمايتك من أي عدوٍّ غامض قد يؤذيك؟

- لا!

- أنا الوحيد في المستشفى الذي صدّق قصصك وبإمكاني حمايتك حتى تأتي زوجتك.

- رائع؛ إذًا ابقَ معي أرجوك.

- لا يُمكنني البقاء هنا، هذا ليس القسم الخاص بي وليس لدي صلاحيات كما في قسمي.

- ما هو قسمك؟

- الطب النفسي.

انفعل الرجل وغضب وقال: أتظن أني مجنون لتزُج بي هناك؟ خسئت وربُّ الكعبة.

ابتسم «فيصل» وقال بذكاءٍ شديد: لستَ مجنونًا وأعداؤك يبحثون عن فرصة الإيقاع بك، لذا إن تركتك بين المجانين «كما تصفهم أنت» فلن يتجرأ أحد عليك بل ولن يشكَ في أمرك ولن يستطيع أحد إيذاءك؛ لعدم توقّعهم تواجدك هناك.

فكر لدقيقة وقال: أعتذر منك يا دكتور.

- لماذا؟

- لأنني استهنت بك؛ أنت الطبيب الأكثر ذكاءً وحنكة من بين الأطباء الذين قابلتهم في حياتي.

- شكراً لك؛ هل أقنعتك فكرتي؟

-أجل، أتعلم؟ قرّرت وفور ما تجيء زوجتي وأخرج من المستشفى سأقوم بتعيينك مُساعدًا لي وحابكًا لخططي، ذكاؤك سيخدمني كثيراً.

- حسناً؛ استعد وسأطلب سيارة الإسعاف لتنقلك إلى المبنى الآخر.

- لَماذا سيارة الإسعاف؟ هل تُريد خيانتي؟

- لا؛ لضمان تخفّيك وخروجك من المبنى دون أن يراكَ أحد.

ابتسم المريض ونهض من مكانه مُقترباً من فيصل هامساً في أذنه وقال: «لاحقاً سأعمل على إخراج عقلك الذي تُفكّر به وسأضعه في متحفٍ كبير؛ إنه رائع».

ضحك «فيصل» بشدة على تعليقه واصطحبه معه.. كما خطّط وسط شكر كبير من طبيب الطوارئ الذي قام بطلب قدومه للتفاهم مع المريض منذ البداية.

وبعد أن وصلا إلى طوارئ المصحة النفسية بدأ «فيصل» بإنهاء الأوراق الخاصة لتنويمه، وقام المُمرضون باصطحابه معهم وهو بغاية السعادة والرضا، كوْن الخطة التي تم الاتفاق عليها تسير وفق ما يريد.

مضت الليلة بهدوء تام حتى خرج صباح اليوم التالي.. الذي لم يحدث فيه شيء يذكر، عدا إنهاكه بعد مناوبته وإمضائه مُعظم اليوم في فراشه من شدة التعب.

جاء (صباح الخميس) الذي اتفق فيه «فيصل» مع والد «ضيْ» على إحضارها إلى المستشفى وإجراء الفحص اللازم لها، لقد كان في غاية حماسه للاطمئنان عليها واستبعاد التشخيص الذي وصل إليه أخيرًا أو التأكد منه والبدء في علاجه مبكرًا.

وصل إلى عيادته وهو بكامل نشاطه وأثناء انتظاره دخول المريض وردته مكالمة من والد « ضيْ » توقّع منها إخباره بحضورهما؛ لكنه فوجئ بأن ضيْ مُتعبة منذ الليلة الماضية وأنها تشعر بالغثيان الشديد وأنها كثيرة التقيّؤ، بالإضافة إلى ألم متواصل في بطنها وأنّ هذه الأعراض تأتيها مرة كل شهرٍ تقريباً، وفي النهاية اعتذر له عن عدم حضورهما اليوم بسبب حالتها الصحية وصعوبة مجيئها.. ليجد قبول «فيصل» وليتمنى لها الشفاء العاجل.

بدأ فيصل التفكير بشأن صحة «ضيْ»، أو أنها عادت لعنادها السابق مما جعل أباها يختلق عذرًا لها ليعلّل به عدم رغبتها في الحضور.

قاطع تفكيره صوت المُمرّض الذي يستأذنه إدخال المريض التالي..

حُباً للقراءة
IN LOVE WITH
BOOKS
@freebooksf

أنا لستُ هنا

استغرق دخول الرجل المُسِن دقيقة كاملة.. كان الشحوب يكسو وجهه، يجُر جسده النحيل، حتى جلس بهدوء على كرسيه المُخصّص له.

- كيف حالك؟

ليعمّ الهدوء الغرفة ولم يجد إجابة أو نظرة من الرجل وكأن السؤال لم يوجه إليه.

- يا عمّ؛ هل لديك مشكلة في السمع؟ هل تريد أن أقترب منك أكثر حتى تسمعني؟

نظر الرجل لفيصل ببطء شديد، وقال: هل تحدثني؟

- لا يوجد غيرنا في الغرفة، بالطبع أحدثك؟

- تحدث عن نفسك؛ أنت الوحيد الذي في الغرفة بينما أنا لستُ موجودًا.

أصيب «فيصل» بالدهشة، وطلب توضيحًا منه، بقوله: كيف تزعُم أنك لست موجودًا وأنت مُدرَج في قائمة العيادة، وقد قام الممرض بإدخالك لدي قبل عدة دقائق، فسّر لي أكثر؟

- لقد مت قبل سنوات؛ وأي شيء تراه عدا ذلك ليس حقيقيًا يا بني.

- ما سبب موتك؟

- هجوم عمالقة لحقوا بي لأشهرٍ واستسلمت لهم وتمكنوا مني في النهاية.

- حسنًا؛ ماذا حدث بعد ذلك؟

- احتاروا في أمري ولم يرغبوا بنشر الخبر، قاموا بدفني في إحدى المقابر البعيدة جدًا وأرسلوني مجددًا بجسدي إلى عائلتي حتى لا يشك أحد في اختفائي.

- هل تعني أنك الآن موجودٌ في قبرك؟

- أجل.

- هل تُعاني من مشاكل غذائية؟ إني أرى عظامك قد برزت من تحت جلدك.

- أنا لا أكلُ أساسًا!

- لماذا؟

- لَماذا أقوم بتناول الطعام وأنا ميت؟ هل أنت مجنون يا دكتور؟

- يبدو أني في نهاية الأمر سأكون مجنونًا.. وهل لاحظ أبناؤك أي تغيير ؟

- منذ رجوعي وهم في علاقة سيئة معي؛ أراهم يتحدثون من خلفي يغمزون ويلمزون.. أحيانًا أتخيل مؤامراتهم تُحاك ضدي بينما أنا لم أقُم بإيذائهم بل ضحّيت بنفسي للعمالقة كيْ أُنقِذ أبنائي، لكن هذا لم يُثمِر معهم بشيء.

- ما نوع المؤامرات؟

- لا أعلم؛ لكنني خائف من أن يكتشفوا سر موتي ويقوموا بفضحه وتحدث مشكلة كبيرة.

- ما دمت ميتًا.. لِمَاذا أتيت إلى المستشفى؟

قال: لقد طلب منّي العمالقة فعل ذلك حتى أُخفي الشبهات المُتعلّقة بهم.. وليظهر اسمي مُجدداً في الكشوف الحكومية للمستشفيات وهذا يعني أني ما زلت على قيد الحياة في حال أراد أحدهم تتبّع أمري والبحث خلفي.

- لو قُمتُ بوصف دواءٍ لك، هل ستلتزم به؟

- هل يتناول الميّت الأدوية؟ يبدو أني أتيت إلى الطبيب الخاطئ!

وما إن أنهى جُملته حتى نهض من مكانه وقال: « سوف أذهب لأُكمِل اختفائي، إياك أن تُخبر أحدًا بسري وإلا فإن الموت سيلاحقك كما حدث معي ولا تستهِن بكلامي».

خرج غاضبًا وأغلق الباب بقوة من خلفه.

من الجانب الآخر تحسنت صحة «ضيْ»، بعد ليلة مُتعِبة أمضتها في التنقل بين غرفتها ودورة المياه، ارتدت ملابس لائقة للخروج وأخبرت والدها أنها ذاهبة لتناول الإفطار مع بعض صديقاتها.

- ما دُمتِ بصحة جيدة ما قولكِ في أن أصطحبكِ إلى المستشفى لإجراء الفحوصات؟ (قال والدها)..

- لا يُمكننا فعل ذلك بعد اعتذارك من الطبيب «فيصل» والمؤكد أنه أبلغ الأطباء في قسم الأشعة بعدم قدومنا وقد تم تأجيل موعدنا.. لا أجد فائدة من ذلك.

اقتنع والدها بقولها وسبقها إلى السيارة وهو مطمئن لاجتماعها مع صديقاتها بعد انقطاع طويل، وكان يُخفي تعجبه في ذات الوقت.

في طريقهما كان المطعم على مقربة من المستشفى الذي يعمل بهِ «فيصل» والتي أثناء مرورهما بجانبها مازحها والدها قائلاً: «هل أقوم بإنزالك هنا عِوضًا عن المطعم؟»

تركها في المطعم المنشود وأبلغها أن تتصل به في حال جدّ جديد، ودّعته ووعدته بذلك.

إنها تشعر بالصداع الذي يزداد بالتدريج.. لا سيما أنها أمضت الليل بأكمله دون نوم.. بعد دخولها بادلت صديقاتها التحايا والسلام الحار.

شرعن في تناول الإفطار بعد أن تحدثن مع «ضيْ» وقُمنَ بالاطمئنان على حالتها الصحية بأسئلتهنّ المتتالية وعاتبنها على انقطاعها في الفترة الماضية.. وكانت بدورها تتهرب من الإجابة على تساؤلاتهن.. بالإضافة إلى أنها لم تتناول سوى قطعة صغيرة من المعجنات حتى لا تُعاودها آلام البطن.

بعد نصف ساعة استمرت في الشرود.. حتى لم تعد تسمع مما حولها سوى ضجيج خافت من أحاديث صديقاتها دون أن تستوعبه.. بدأ الألم يفتك بها حتى وضعت يديها على رأسها.. لتستأذنهنّ الذهاب إلى دورة المياه على عجل.. وقفت أمام المرآة وهي ترى تغير ملامحها، لم تنفك تُغلق عينيها وتُعيد فتحها لرغبتها في تحسين الصورة التي تعكسها لها المرآة، بعد أن مرّت دقيقة من تسمّرها أمام المرآة شعرت بالدوار مما جعلها تسنُد ظهرها على الجدار لتنزلق ببطء حتى لامس جسدها الأرض وتوقفت عن الحركة.

مـرّت دقائـق حتـى تنبّهـت صديقاتهـا لتأخرهـا لتنهـض إحداهـن خلفهـا لتطمئـن عليهـا ومـا إن فتحـت البـاب إلا وجدتها بحـالٍ هزيل عـلى الأرض، طلبـت المسـاعدة ممّن حولهـا لحمـل «ضي» ووضعها على الكرسي.

لم يتوقّفـن عـن سـؤالها عـمّا أصابهـا وهـي تنظـر لهـنّ بنظـرات بـاردة يتخلّلهـا الاسـتغراب، لم تلبـث أسـئلتهن تنهـال عليهـا حتـى نطقـت تسـأل إحداهـن: «مـن أنـتِ؟»

بـدأن في الضحـك عليها لتوقعهن أنهـا تُمازحهن لتكسِر قلقهن عليها وليتوقفـن عـن السـؤال، لم تهدأ ضحكاتهـن أيضاً إلا بسـؤالين إضافيين منهـا قائلـة: « ما هـذا المكان؟ لمَ أنـا هنا؟».

عـمّ الصمـتُ المـكان، تبادلن النظـر إلى بعضهن للبحث عن تفسـير..

قالـت إحداهـن: نحـن صديقاتك، أنا لمـى وهذه سـارة وتلك رنا.

عاودت النظر إليهن بتفحص وقالت: لا أعرفكن؛ لم أنتنّ هنا؟

بـدأ القلـق يـزداد بينهـن.. لتُخمّن إحداهـنّ أنّها اصطدمـت بشيء ما في دورة الميـاه ممـا أدّى إلى اضطرابهـا وفقدانها الذاكرة.

طلبـت إحداهن مـن «ضيْ» أن تتصل في والدها ليـأتي ويصطحبها إلى المستشفى؛ سـكتت طويلاً..

قامت إحداهن بفتح حقيبتها وتفتيشها لإخراج هاتفها المحمول للاتصال به لكنّ الهاتف كان مغلقًا برمز مرور.. فسألت «منى»: ما الرقم السري؟

- لا أعرفه!

تركت «رنا» الهاتف المحمول في يدها قائلة: حاولي التذكر لنستطيع الوصول لوالدكِ.. فنحن لا نعرف كيف نصل إليه.

تشاورن فيما بينهن واتفقن على الاتصال بسائق إحداهن لأخذها إلى أقرب مستشفى في المنطقة ليتسنى لهن الاطمئنان عليها.

بعد أن صلّى الظهر خرج «فيصل» من عيادته مُنهكًا.. ومُتجهًا إلى غرفة الأطباء.. لم يصل بعد حتى ورده اتصال من «رائد» يخبره أنه في طور إعداد طعام الغداء واعدًا إيّاه أنه سيتذوق ألذ غداء في حياته على الاطلاق؛ ليرد فيصل: آخر مرة أعددتَ فيها الطعام قُمتَ بالطلب من المطعم بعدها مباشرة ولم يتذوّق طعامك سوى أمي مجاملة لك.. وأذكر أنها أمضت ليلتها في قسم الطوارئ لتسمّمٌ غذائي أصابها.. انتهت المكالمة بضحكات من الطرفين.

بعدها بثوانٍ ورده اتصال آخر، لكن هذه المرة من الدكتور ناصر (طبيب الباطنة الذي قام بتحويل حالة ضيٍّ إلى عيادته).

- أهلاً برجل المفاجآت؟ هل من جديد؟

- أعلم أنك تمازحني لكن لدي مفاجأة لك.

- لي؟ وما هي؟

- ضيفٌ تعرفه تمامًا.. أتى لزيارتي قبل ساعة بالتحديد.

- ضيف في الظهيرة؟ لحظة؛ خالد أم عبد الله؟ فهُما من كانا معنا في نفس الدفعة ومن المتوقّع مجيئهما لزيارتك، وحتمًا تُخبرني الآن كي آتي لرؤيتهما.

- لا إنه أجمل وأهم منهما.. لقد أتى دون موعد مني أو علمٍ منه.. ضيفتي هي «ضيْ» يا فيصل.. (قال ذلك وهو يضحك).

- ما سبب زيارتها؟ هل أصابها مكروه ما؟

- تعال إلى الطوارئ الآن لتطّلع على التفاصيل.

من غير تردد توجه فيصل إلى قسم الطوارئ قاصدًا مكتب «ناصر» الذي كان ينتظره، ليخبره: إنّ مجموعة من الفتيات اصطحبنها إلى هنا، وقُمْن بإخباري أنها تشكو من آلام في رأسها، وانتهى بها المآل إلى عثورهم عليها على أرضية دورات المياه، ويبدو لهن أنها تعاني من فقدان الذاكرة بشكل مفاجئ، لكن الغريب في الأمر هو أنه بعد وصولهن إلى هنا بعشر دقائق بدأت ذاكرتها في الرجوع إليها تدريجيًا، تذكرت كل شيء واعتذرت منهن، وبعدها طلبت أن تغادر المستشفى

برفقتهن، لكنني رفضت وقمت بالاتصال بك حتى تُخبر والدها.

لم يُنهِ كلامه حتى اتصل «فيصل» بوالدها ليطلعه عن تواجدها في قسم الطوارئ حاليًا وطمأنه أنها على ما يرام، وطلب منه الحضور لأنه ينوي أن يقوم بعمل الأشعة فوراً بسبب وجودها في مبنى المستشفى ويجب الحصول على موافقته.

- هل يمكنني رؤيتها؟

- أجل؛ إنها مريضتك أساسًا!

أسرع «فيصل» بالعبور بين ممرات المستشفى حتى وصل لغرفتها.. طرق الباب وبرفقته إحدى الممرضات، وما إن رأته حتى اختلط فيها شعور الفرح به والخوف مما ينويه.. إنها في المستشفى الآن تحت حكمه ولن تخرج منها إلا بموافقته.

رحبت به وطلبت منه الجلوس.. وبعدها سألها عن حالتها وعن الوعكة الصحية التي أتتها ليلة الأمس.. أجابته بالتفصيل.. لم تتوقف اسئلته لها لمدة نصف ساعة.. كان لا يملّ النظر إلى وجهها الذي ورغمًا من إرهاق ملامحه إلا أن جماله بدا طاغيًا.

بعد ما يقارب النصف ساعة دخل والدها في عجلة وارتباك ليطمئن عليها، وبعد أن رأى فيصل برفقتها اطمأن عليها وعلم أنها على ما يرام.. اقترب منها وقبّل رأسها وأخبرها أنها لن تستوعب

مطلقًا حجم الخوف الذي أصابه بعد مكالمة فيصل.. وأنه ومن حسن حظه كان في طريقي ليس ببعيد عن المستشفى.

نهض فيصل ليتركهما معًا، وقبل مغادرته الغرفة سألها: هل ستقومين بإجراء الفحوصات اللازمة؟

سكتت قليلاً ثم قالت: لا، لست في حاجة تعريض رأسي إلى الرنين المغناطيسي، هذا قراري الأخير ولا رجعة عن ذلك.

خرج «فيصل» قائلاً: سأعود بعد عشر دقائق.

وما أن أغلق الباب حتى عكف والدها على إقناعها؛ لكنها قابلته بالعناد الشديد وذلك ليس بجديد عليها.

بعدما انتهت العشر دقائق.. طرق «فيصل» الباب مستأذنًا للدخول، بعد أن سُمِح له دخل وفي حوزته أوراق.. لم يتوقف حتى وضعها بين يدي ضيْ التي سألته مباشرة عن ماهيّة هذه الأوراق!

-إنها أوراق خروجك.. قمت بتوقيعها والسماح لكِ بمغادرة المستشفى، لستِ بحاجة إلى أي جلسات إضافية في عيادتي.. لقد أصبح الأمر دون فائدة.

أنهى كلامه وسط تعجب من ضيْ.. كيف أصبح الأمر أبسط مما توقعت.. وذهول والدها الذي توقع أن يستمر «فيصل» في اقناعها.. لكن ما يحدث الآن هو استسلام مريع.

شكرته على تعاونه واحترامه لرغبتها، ابتسم وقال «إنكِ ناضجة ومن المفترض أن تعرفي الصواب من الخطأ ونعلم أننا مهما حاولنا لجعلك تعدلي عن رأيك فلن نستطيع ما دمتِ تؤمنين أنك على صواب.. الأمر الإيجابي الوحيد في السماح لكِ بالخروج.. هو أني سأراكِ بشكلٍ أسبوعي أثناء زيارتكِ لنا في قسم الطوارئ.. فمرضك المجهول ينهش جسدك وأنتِ من سمح له إكمال عمله دون أن نتدخل.. ستأتين إلى هنا الأسبوع القادم لكنني لا أعلم حول الأعراض التي ستُحضرك.. قد يكون صداعًا أو فقدان ذاكرة يمحي ما بذاكرتك ويُسهّل عليكِ نسيان كل شيء حتى أقرب الناس إليكِ؟ أو اكتئاب يُنهي لحظات حياتك الجميلة القادمة؟ ولا نعلم من سيأتي بك المرة القادمة؟ قد يكون والدك أو صديقاتك أو شخص غريب لا يعرفك، لكنه أراد أن يساهم في نجدتك؟ لكني حتمًا وكما أخبرتك أنتظرك بعد أسبوع وكما ترين لدينا أسِرّة شاغرة ونرحب بالجميع.»

أنهى كلامه وخرج لينهض والدها خلفه بينما أخذت ضيْ تُفكر في الكلام القاسي الذي وجّهه إليها.

استمر «فيصل» بالسير ذهابًا وإيابًا في ممرات المستشفى المجاورة لغرفتها.. ليقاطعه صوت والدها الغاضب: « دكتور فيصل، دكتور فيصل».. « كيف تتحدث إليها هكذا؟ كيف تعطيها الضوء الأخضر؟ كيف تسمح لها بالخروج؟ لقد خيبت ظني فيك!».

- هل تؤمن أنها ستتخذ القرار الصحيح؟

-لا؛ طبعًا!

- لنُمهلها بعض الوقت حتى تتخذ قرارها الأخير، والذي أتمنى أن يكون كما نتمنّى..

لم يُكمل عبارته حتى قاطعه صوت الممرضة التي كانت برفقته.. لتخبرهما أن ضي ترغب في رؤيتهما..

بعد دخولهما الغرفة.. مدّت «ضي» الأوراق التي بين يديها إلى «فيصل» بينما كان ينظر إليها هو ووالدها في ذهول..

- أنت طبيب سيئ حقًا؛ كيف تسمح لمريضك بالخروج من المستشفى وهو لم يتماثل للشفاء؟ اممم.. حسنًا؛ لتتم بقية الفحوصات لننهي الأمر من جذوره.. بشرط أن يكن الموعد الأسبوع القادم.. أرغب في التحسن قليلًا!

في لحظتها باشر التواصل مع طبيب الأشعة ليسأله عن وقتٍ مناسب.. ليمهله دقائق حتى يراجع بها قائمة مواعيده، وليتأكد من وجود موعد شاغر، لكنه لم يجد موعدًا إلا بعد أسبوع من الآن.

تنهد فيصل وابتسم.. ليلقي بنظرة خاطفة نحو والدها الذي كاد يطير من الفرح.

اطَّلع على بقية فحوصاتها بصحبة الدكتور «ناصر» الذي أذن لها بالخروج من قسم الطوارئ بعد غروب شمس هذا اليوم.

رجع «فيصل» إلى منزله منهكًا وسعيدًا في ذات الوقت.. بعد صلاة العشاء بقليل.. وجد «رائد» مستلقيًا على الأريكة يشاهد التلفاز، سأله عن والدته وأخبره أنها في ضيافة خالته، قائلاً: لن أعاتبك على عدم حضورك وجبة الغداء كما وعدتني!

-آسف.. غاب عن ذهني مهاتفتك؛ جاءت إلينا حالة طارئة واضطررت ملازمتها.. صحيح؛ لماذا لا تعاتبني على عدم حضوري؟

-لأنك لو تناولت الغداء، لرقدت في قسم الطوارئ بجوار الحالة التي كنت مشغولاً بها.

ضحك فيصل؛ وقال: لا جديد؛ لكن أخبرني بالحقيقة.. هل أمي حقاً عند خالتي أم أنها في قسم الطوارئ؟

- من حُسن حظها أنها صائمة اليوم ولم تتناوله معي، ومن حُسن حظي ألا أحد منكما شاركني إياه حتى لا يستهزئ بي لاحقًا بسببه.

مرّ الأسبوع بسرعة حتى أتى يوم الخميس، يوم العيادة..

وصل مبكرًا.. تهيّأ للجلوس على مكتبه.. وأعطى للممرض إذن إدخال المريض الأول.

امرأة في المرآة

بعد ما يقارب الدقيقة دخل شاب في نهاية العشرينات من عمره برفقة والده المُسن، بدأ في السلام على الطبيب.. ثم اجلس أمامه.

- أيكما المريض؟ (سأل الطبيب)

- إنه ابني يا دكتور، جئت بهِ.. علّك تجد له حلاً يريحنا.

تفحص «فيصل» الشاب بتمعن.. لاحظ حركة يديه الكثيرة والمُتكررة وتمتمة شفتيه بكلمات غير مفهومة.. يحدق باستمرار في ركبتيه، لم ينظر حتى إلى الطبيب إلا عندما ألقى بالسلام.. وقال:

- ما سبب قدومك إلى هنا؟ لكن ما مِن مُجيب.. فَوجّه سؤاله لوالده.

- ابتدأت حالته هذه منذ ما يقارب أربعة أعوام حيث بدأ يتوتر بشكل مبالغ فيه.. أصبح كثير القلق والنسيان، حتى صار ينسى كم صلاة صلى في اليوم.. لقد قمنا بزيارة أحد الأطباء قبل عامين وصرف له أدوية حسّنت من حالته لفترة.. لكنه سرعان ما توقف عن تناولها لظنّه أنه تماثل إلى الشفاء لترجع أعراضه السابقة بشكل أسوأ مما سبق.

التفت « الطبيب » إلى الشاب ثم سأله: هل تعاني من شيء آخر؟

نظر إليه نظرة خاطفة ومن ثم سلّط نظره على ركبتيه وقال: بدأت

أفقد التركيز؛ أردت الاعتماد على نفسي فبدأت في إيصال الطالبات من الجامعة إلى المنازل والعكس.. وقد تعرضت إلى حوادث سير متكررة مما أدّى إلى فصلي من عملي.

- كم حادثًا ارتكبت؟

- تجاوزت العشرين.. ولا يوجد أي خطأ مني، كان الخطأ من الطرف الآخر.

- هل أنت متأكد!! أخبرتني للتو أن تركيزك منخفض وهذا سبب وجيه لما يحصل معك.

ازدادت حركة يديه كثافة، احمرّ وجهه، انتفض.. وقال: لا؛ ليس سببًا مقنعًا.. نقصان تركيزي لا يمكن أن يكون السبب..

شرعَ والده في تهدئته؛ ثم قال للطبيب: ابني يرى أشياءً لا نستطيع مشاهدتها، يرى أُناسًا يحترقون في أي غرفة يدخلها ويُقسم على وجودهم وأنهم يرونه ويراهم ولا يمكننا ذلك.

- هل هذا صحيح؟ ... لم يُجِبه.

كرر السؤال عدة مرات، لكنه تحفّظ على ردة فعله.

بعد محاولات مُلحة.. تمتم بصوتٍ لا تكاد تسمعه: «المرآة، المرآة»..

سأل والده: « ماذا يقصد؟».

- إنه يتسمّر لساعات أمام أي مرآة يجدها، ويتوهم رؤية امرأة فاتنة خلالها ليناقش معها عدة مواضيع ويبادلها الأحاديث، وينتظرها أيضًا كل يوم حتى يُمتّع عينيه بها.

لم يسأل فيصل الشاب عن صحة حديث والده.. لمعرفته المسبقة بأنه لن يحصل منه على إجابة شافية.. ليبدأ في كتابة وصفة الدواء المناسبة لحالته، وأوصى في إجباره على تعاطيها حتى وإن رفض لأن حالته ستزداد سوءًا وقد يضطرون إلى حجزه في المستشفى.

- بالتأكيد؛ سنبذل قصارى جهدنا ليتعافى ولنتفادى الوصول إلى هذه المرحلة، وبعد نهوضهما وفي طريقهما للخروج.. توقف الشاب لثواني، ثم نظر إلى فيصل وقال: هل تعرف لماذا لم أعِر كلامك أي اهتمام؟ لأن هناك من يتحدث إليّ وأخبرني أنّ ما تقوله مجرد هراء لا قيمة له، وطلب مني ألاّ أستمع لك.

ابتسم « فيصل» وقال: التزم بتناول دوائك ولن يستطيع أي شخص التحكم فيك، ولن تكون مُجبرًا على تنفيذ أوامرهم.

خرج الشاب ووالده خلفه بدون أي تعليق..

مرّ اليوم سريعًا.

بعد عطلة نهاية الأسبوع التي أبطأها الانتظار والخوف من تغيّرات مزاج ضي التي قد تؤثر على رأيها.. أتى يوم الأحد.

الساعة تُشير إلى التاسعة.. المكان هادئ كما عهدته صباحات المستشفى.. إلاّ من صوت وقع أقدام فتاة قلقة وخائفة تسير خلال الممر الذي كان خالٍ على غير عادته وكأنما تم إخلاؤه عمدًا لتعبر منه.

كانت مُثقلة بالتوتر؛ تخطو الخطوة إلى الأمام وكأنها تريد الرجوع ضعفيها إلى الخلف.. نهاية الممر بعيدة جدًا وكأنه الممر الأطول في حياتها.. الممر الذي سُينهي معاناتها أو ستبدأ من بعده معاناة أخرى.

بعد دقائق طويلة وصلت إلى غرفة الأشعة.

رحبت بها الممرضة وطلبت منها تبديل ملابسها في غرفة صغيرة.. لبست اللباس الخاص في الأشعة.. وخرجت تسير كأنها تُقاد إلى ساحة الإعدام.

درجة حرارة الغرفة معتدلة، لكن العرق يتصبّب منها، قابلت طبيب الأشعة الذي رحب بها وأخبرها أن الأمر بسيط ولا يتطلب القلق.. وأرفق كلامه بالتعليمات المطلوب منها تنفيذها ومن ضمنها التأكد من عدم حملها أي شيء معدني على جسدها كالأقراط أو تقويم الأسنان أو الخاتم وغيرها.

استلقت في هدوء.. أخبروها أن الجهاز يُصدر بعض الضوضاء وأتاحوا لها خيار استخدام سدادات الأذان لمحاولة عزل الصوت عنها.. لكنها رفضت.. طلب منها ألّا تتحرك حتى لا تُقلل من دقة الصور التي ستُأخذ لرأسها.

بعد ما يقارب النصف ساعة أخذ الجهاز آخر صورة لرأسها.. طلبت من الممرضة أن ترتاح لبعض الوقت بعد ما حظيت به من

ضجيـج.. بعـد وقـتٍ لا بـأس بـه مـن الهـدوء ارتـدت عباءاتهـا بنيّة الخـروج ليطلـب منها طبيب الأشـعة قصـد مكتب فيصل الـذي تعرف الطريـق إليـه أكثـر مـن أي مكان آخـر في المستشـفى..

القلـق يمـلأ المـكان، ليكـون لـضي النصيـب الأكـبر منـه، فَبعد مراوغـات عديدة رضخـت لِأكثر أمر تخافـه.. الأفكار السـيئة تتلاعب بهـا.. جلسـت عـلى الكـرسي في شرود..

اسـتأذنها «فيصـل» الخـروج وطلـب من والدهـا أن يأتي خلفـه بهدوء ليتركاهـا وحيدةً بعـض الوقت.

مـضى وقـت طويـل عـلى جلـوس ضي مـع نفسـها وكأنـه سـنوات.. دقائـق السـاعة أصبحـت أبطأ بكثير ممـا كانت عليـه في السـابق.. القلق ينهـش قلبهـا، التوقعات تتقلّب في رأسـها؛ «مـاذا سـيفعل أبي؟»، «ماذا سـيقول فيصل؟»، «كيـف أواجـه ردة فعلهما؟»، «كم تبقى مـن الدقائق لتنكشـف عورة أسراري؟».

بعد سـاعة مـن الانتظـار طُرِق البـاب ولم يصـبر الطارق كثيراً لأخذ الإذن، كان الطـارق هـو فيصـل الـذي دخـل الغرفـة عـلى عجـل ومعه ورقـة يتضـح بأنهـا تحوي تقريـر الأشـعة وما آلـت إليـه نتيجتها.

لم يجلس بمقعده الذي يقبع خلف الطاولة، بل قام بالجلوس بالمقعد الذي يواجه مقعد ضيْ مباشرة ولم يبدأ بالحديث حتى سألته عن أبيها ولِمَ لمْ يأتي برفقته؟ فأجاب بأنه طلب منه البقاء بالخارج بعيداً في حال رغبت ضيْ بقول شيء لا تود أنه يسمعه.

بعد انتهاء إجابة فيصل صمتت ضيْ وهي تنظر إلى سقف الغرفة وأمعنت النظر إليه، حتى قاطعها قائلاً: أتودّين قول أي شيء؟

- استمع إليّ؛ أرجوك.. (قالت ضي بنبرة يؤججها القلق).

- منذ أربعة أعوام بدأت في ملاحظة ظهور أعراض عديدة على أمي، لقد أخفت عنّي ما حدث لها.. حتى لا تتأثر دراستي - خصوصًا أنني أمر في فترة ما قبل التخرج -.

بعد تخرجي أصبحت ألاحظ ازدياد الأعراض عليها، كانت لا تنام، انخفض وزنها.. ومع سؤالي المتكرر لها كانت تتعذر بالحمية الغذائية.

اختلفت طباع أبي صار حادًا وشارد الذهن يسيطر عليه الإرهاق.. يتنهد كثيرًا وكأنما يريد بذلك أن تُزاح جبالٌ عن ظهره.. يتظاهران بأن لا شيء يحدث بينما كنت أشعر ذلك في تصرفاتهما..

في إحدى الليالي عندما كنت في طريقي إلى المطبخ بنية شرب كوب من الماء.. استرقت السمع لهما من دون قصد؛ كان يُقنعها بزيارة الطبيب للشروع في العلاج.. إنه يتوسل إليها بأن تُرافقه إلى المستشفى ويكرر وعده بمساندتها حتى الشفاء ولو اضطر الأمر لتكرار المحاولات.

لا يمكنني وصف السوء الذي عانيته تلك الليلة؛ لا أسوأ من أن يرى المرء أبويْه عاجزين ولا يستطيع فعل شيء أو تغييره.. ضاقت بي الأرض بما رحبت وسُدّت مخارجها أمام عينيّ.. بعد أيامٍ قليلة لم أعد أتمالك غضبي فواجهتهما بما عرفته وعاتبتهما بقسوة فلا يحق لهما الإخفاء..

بدأتُ مؤازرة أبي لإقناع أمي في الذهاب إلى الطبيب.. من أكبر أخطائها تأخرها عن الكشف ليزيد الأمر فداحة تأخرها في العلاج واستسلامها للمرض الذي سلبها من بيننا بعد أشهرٍ من المعاناة..

قُبِلت في إحدى الوظائف بعد تخرجي لكنّني لم ألبث إلا وتركتها للاعتناء بها، راقبتُ أبي وقلّة الحيلة وشعوره بالعجز يعصران قلبه.

وفي صباح اليوم الأسوأ في حياتي منذ وُلِدت.. اتجهت إلى غرفة أمي.. تدفعني رغبة الارتواء منها.. لأجد والدي يبكي بحرقة إلى جانبها، يداهُ متمسكتان بها ورأسه مدفون في صدرها.. لا أعلم هل أبكي على فراق أمي أم أتماسك وأتظاهر بالقوة لأجل أبي! غادرت

أمي الحياة وتركتني وحيدة وفارغة: «آهه، لا تعرف كم عامًا كبرتْ ذلك اليوم؟».

منذ ذلك الحين والأعراض مستمرة في الظهور عليّ بدءًا من الصداع إلى آلام البطن، وقد زاد من سوء الأمر ملاحظة أبي لمعاناتي إلى نفور كثيرٍ من صديقاتي عنّي، اعتزلت الحياة خارج المنزل، تغيّرت طباعي كما تعلم، عندما زرت عيادتك في المرة الأولى بعدما تحولت إلى إنسانة حادة الطباع على عكس ما كنته مسبقًا.

لا أُخفيك؛ كانت لديّ بعض الشكوك حول مرضي بعد مقارنته بمعاناة أمي.. اطّلعت على بعض العلامات المُساعدة في تشخيص الأمراض البارزة وعلمت أنني أحمل ذات المرض.

أُشفق على والدي؛ لا أريده أن يعيش التجربة نفسها مرة أخرى.. لقد كنت عزاءه الوحيد في الحياة، إنني كل ما تبقى لديه.. لكن الأمر الآن خرج عن سيطرتي.

انتصبت مكانها وعيناها مصوّبتان نحوه «أعلم أنّ ما أعاني منه هو ورم، ولا أعلم ماهيّته بشكل طبي واضح لكنّي أعلم بأنه سينهش جسدي كما فعل بأمي، وأرجو منك ألاّ يعلم أبي عن ذلك وأعدك بأنني سأداوم الحضور للعلاج..»

استمر «فيصل» في التحديق إليها طيلة فترة حديثها يراقب تحركاتها بهدوء تام وبعد جلوسها، قال:

- صحيح، لم أسألك قط عن تخصصك الجامعي؟

- أعتقد بأنه ليس الوقت المناسب لهذا السؤال؟ لكن سأخبرك، «لغات وترجمة».

- جميل، إذًا لغتك الإنجليزية جيدة؟

- جدًا، لكن لماذا؟ (وعلامات التعجب تملأ وجهها).

مدّ الأوراق التي في يده نحوها.. نظرت في ذهول ومن الواضح أنها لا ترغب في مجرد الإمساك بها.

- «خذي من يديّ واقرئي ما فيها..»

أومأت برأسها مشيرة لرفضها ذلك.

- إن قرأتِ ما يحتويه، فلن أطلع والدك على شيء.

- أعتبره وعد منك؟

- أجل..

أخذت التقرير بين يديها المرتعشتين وفي تردد تركتها بشكلٍ مقلوب على فخذيها لإحساسها بعدم قدرتها على رؤية ما فيها وضعفها أمام الحقيقة..

بعد دقائق كسبت فيها قليلاً من الفضول والشجاعة.. قلبت الورقة ويدها ترتجف من شدة القلق.. قرأت في صمتٍ تام وأثناء ذلك تساقطت دموع عينيها حتى بللت الورقة..

- ما سبب الدموع الآن؟

لم تقدر على الإجابة بل كانت تضغط على الورقة بشدة مما كاد يمزقها.

- اقرئيها بصوت عالٍ؛ ليتسنى لي معرفة سبب دموعكِ!
- لا أستطيع ذلك!
- لا بأس؛ وأنتِ تبكين.. أرغب في الاستماع إليكِ!

قرأت التقرير مترجمةً إياه إلى العربية:

الاسم: ضي.

العمر: أربعٌ وعشرون عاماً.

رقم الملف: ١١١١١٩٠

التاريخ: يوم الأحد من ذات العام.

نوع الأشعة: رنين مغناطيسي للدماغ.

ملخص لدواعي الأشعة: أنثى، في الأربع والعشرين من عمرها تشتكي صداعًا مزمنًا وفقدانًا مؤقتًا وجزئيًا في الذاكرة.

النتائج:

- الدماغ يظهر بحجم طبيعي وأجزاؤه متناسقة مع عمر المريضة.
- لا وجود لدلائل على انسداد أو زيادة في سائل النخاع الشوكي.
- ليس هناك دلائل على نقص التروية داخل الجمجمة، أو وجود أية التهابات مؤخراً.

- لا توجد أدلة على أورام أو أي كتل دماغية بعد المسح الكلي للدماغ.
- المخيخ والجذع يظهران بشكل طبيعي.

الانطباع عن النتيجة:

صورة رنين مغناطيسي للدماغ تُظهره وجميع أجزاءه بشكل طبيعي.

لا وجود لأيّة أورام أو كتل ضاغطة أو التهابات أو نزيف داخل الدماغ.

(توقيع الاستشاري الذي قام باعتماد التقرير)

هنا رمت ضيْ الورقة أرضاً وأجهشت بالبكاء وهي تُردّد «كنت أعيش في خوف طيلة الأشهر الفائتة بسبب وهم؟»

نهض من مكانه وفتح باب الغرفة ليدخل والدها الذي عِلِم بالنتيجة قبلها.. ومن شدة ما أسعده الخبر بكى فرِحًا.. فتح يديْه لتقفز إلى صدره معانقةً إيّاه وأصابعه تمسح رأسها بكل حنيّة.

خرج إلى الممر بعد أن انزاح عن صدره همٌّ ثقيل، لكن عقله بدأ التفكير حول ماهيّة مرضها، فمن المستحيل أن تكون تلك الأعراض قد أتت من فراغ..

وفي نهاية اليوم أوصى فيصل «أبا ضيْ» أن يبقى على تواصل معه في حال حدوث أي جديد، وبأنه إن تمكّن من تشخيص مرضها بشكل دقيق سيقوم بالاتصال به فوراً.

في اليوم التالي وبعد صلاة المغرب تلقى فيصل اتصالاً من أحد منظمي المؤتمرات وأخبره أنهم يودون إقامة حفلٍ يجمع فئات مختلفة من المجتمع والمتحدثين ليقع الاختيار عليه كأحد المتحدثين، فرحّب فيصل بهذه الدعوة ووعده أن يُعطيه الرد بعد فترة بسيطة كون الحدث سيُقام بعد عدّة أشهر، وأخبره المُتصل بأنه سينتظر ردّه بالموافقة في أقرب وقت قبل إنهاء المكالمة.

سحرٌ في حديقتنا

يـوم الخميس حـضر «فيصـل» متأخـرًا كعادتـه، وهـو يسـير في الممرِ المـؤدي إلى عيادتـه، لمح سـيدة كبيرة في العمر تتوسـل إلى شـاب في بداية العشرينـات مـن عمـره أن يبقـى معهـا وألا يرحـل.. اسـتمع إلى بعض مـن حديثهـما حتى دفعـه الفضـول إلى إبطـاء خطواته.

- لـن أزور الطبيـب؛ أنـا لا أحتاجـه وأنـتِ تعلمين ذلك! هـل رأيتِ أشـكال المـرضى في غرفة الانتظـار؟ أتظنـين أنني مثلهـم يا أمي؟

أمسـكت يده بقـوة حتى لا يرحـل وقالت لـه: «انتظر قليـلاً لأجلي»، رد عليهـا: «موظـف الاسـتقبال أخـبرني أن الموعـد بعـد مـا يقـارب ٣ سـاعات وأنـا لا أطيـق الانتظار».

أثنـاء ذلـك قاطعـه «فيصـل» بالتربيـت عـلى كتفـه مـن الخلـف: لـو سـمحت؛ عنـد أي طبيـب أنـت؟

ـ لا أعلم!

- حسنًا؛ اتبعاني من فضلكما.

- الشـاب هناك الـذي يقف برفقـة والدته، ضمّه إلى قائمـة المراجعين لعيـادتي وأخـبر الممـرض أن يدخلهـما فـوراً.. (فيصـل مخاطبًـا موظف الاستقبال).

بعد دقائق قصيرة دخلت السيدة المسنة وابنها الذي استمر في الوقوف والتحديق في فيصل: لَماذا قُمتَ بإدخالي قبل الجميع؟

- من أجل والدتك..

- حسنًا؛ اسألها مما أشكو.. وأنا سأنتظرها في السيارة.

ثم خارجًا وما أن وصل إلى الباب وفتح نصفه إلاّ تجمد مكانه حتى التفتَ اتجاه فيصل وقال: لَماذا لمْ تتمسك في بقائي؟ ولماذا لم تطلب مني عدم الرحيل؟

- لأني أعلم أن والدتك ستكون أصدق منك وقد تفيدني أكثر.. إن أردت الجلوس فاجلس أو ارحل.

فكّر لعدة ثواني ثم أغلق الباب واستدار متجهًا نحو مقعده ليجلس متظاهرًا بعدم الرضا عن تصرف الطبيب الذي استمر في تجاهله.

- حسنًا يا والدتي؛ ما سبب مجيئكما إلى العيادة؟

- اتجه قبل سنوات إلى أحد الدول العربية لدراسة الطب الذي كان يرى نفسه به هو ووالده المتوفى، والمخيب للظن أنه عاد إليّ بحالٍ ليست كالحال التي ذهب فيها.

- ماذا تعنين بحال ليست كالحال التي ذهب فيها؟

- إنه من المتفوقين دراسيًا وقد اختار الدولة التي قُبِلَ فيها زملاؤه.. رغب كثيرًا في مرافقتهم.. ومنذ أن سافر والتحق بالجامعة

ومستواه الدراسي منخفض.. شخصيته تغيرت، أصبح مهزوزًا، فقد ثقته في نفسه بالإضافة إلى التصرفات الغريبة التي صدرت منه، ولا يُعقل أن تشابهه....

وكز الشاب أمه بكوعه لتتوقف عن الحديث لكنها «نهرته» بقولها: لم أتعنّى إلى هنا لِأبقى صامتة، ما دمتَ لا ترغب في الكلام فسأقوم بالتحدث عنك.. التفتت نحو فيصل وقالت: هل تُصدق أن ابنك الذي قمت بتربيته والذي يعشق تناول الطعام الذي تعدّه بيديك.. أصبح يتحاشى تناوله؟ أتعلم لماذا؟ لظنه أنّي سأضيف له السم!

- هل ذلك صحيح؟ (سأل فيصل).

«أومأ برأسه لتأكيد صحة ما ذكرته والدته».

وأضافت الأم: «أصبح لا يثق في أحد، كثير الصراخ والشتائم ما إن يجلس وحيدًا.. في الآونة الأخيرة أصبح يستيقظ في الثالثة فجرًا ويخرج إلى حديقة المنزل وبحوزته المِعوَل ليبدأ الحفر تحت الأشجار حتى يصل إلى أقصى عمق يستطيع، لو ألقيتَ بنظرة إليها لذُهِلت.. إنها أشبه بحقل ألغام قد تم حفره واستئصال ما فيه..

- ما الذي يدفعك إلى حفر الأرض كل ليلة و في وقتٍ متأخر؟ (سأل فيصل الشاب).

أدركت الأم أنه لن يتفوه بحرف وقالت: «بهدف العثور على قنينة زجاجية يزعم أنه قد تم تركها هناك وفي داخلها عمل سحري بغرض إيذائه».. ألقى نظرة غاضبة إلى والدته ولم يتجرأ التفوه بكلمة..

سكت فيصل لبرهة من الزمن ثم وجهَ كلامه إلى الأم: هل لك أن تتركينا يا خالتي على انفراد لبعض الوقت؟

ترددت في القبول، وما لبثت إلا أن نهضت وهي تنظر إلى ولدها وتشير بيدها لتحثّه على الهدوء والتعاون مع الطبيب.

قرر فيصل أن يغيّر مكانه ليجلس على المقعد المقابل.. تلاحقه نظرات الشاب حتى جلس أمامه.

- الآن؛ أخبرني ماذا حدث لك أثناء سفرك؟ وعن الأمر الذي جعل طباعك تعاكس طبيعتها؟

لم يجد إجابة منه، فقال له: بناءً على ما ذكرته والدتك.. إنك مصاب بأحد التشخيصات الواضحة والمعروفة.. لكن لا يمكنها أن تبدأ بشكل مفاجئ لمجرد سفرك.. يبدو أنك قد تعاطيت شيئًا ما في رحلتك الدراسية.

في انفعال شديد، رد الشاب: كيف تجرؤ على اتهامي بمثل ذلك؟ لم أتعاطى ولن أتعاطى في حياتي.

- هلّا شمّرت لي عن ساعديك؛ أرغب في رؤيتهما.

ارتبك الشاب لكنه لم يفعل.

- ما قلته لك قبل قليل كان مجرد افتراض مبني على بعض المعطيات ويبدو أن افتراضي كان صحيحًا.. وأن شابًا ناجحًا ومتميزًا في دراسته التي أوشكت على النهاية بسبب تجارب تافهة ستودي بصحته إلى القاع..

خفض الشاب رأسه خجلاً، ليضيف «فيصل» قائلاً: من المفترض بأنك بعد عدّة سنوات ستُصبح زميلاً لي في المستشفى وتقوم بمساعدة الناس وعلاجهم ويأتون طالبين منك استشارتك، لكن بدلاً عن ذلك اخترت طريقاً آخر وضللت الطريق الذي كان يفترض بك السير به، يمكنك أن تتحدث وما ستقوله لي سيبقى سرًا بيننا ولقد أخرجت والدتك كي تستطيع البوح بما لا يمكنك قوله أمامها؛ أنا فقط من يستطع مساعدتك..

تردد الشاب قليلاً ثم عدّل موضع جلوسه وقال: مثلما قالت أمي لك؛ كنت من المتميزين دراسيًا، أطمح أن أكون طبيبًا عظيمًا في المستقبل.. عرفت عن سفر معظم أصدقاء المرحلة الثانوية إلى إحدى البلدان وقبولهم في ذات الكلية وددت مرافقتهم مع علمي «سوء أخلاق بعضهم» لكنني لا أريد البقاء لوحدي هنا والبدء في إنشاء صداقات جديدة قد أنجح في بعضها وأفشل في الأخرى.. رفضت

أمي في البداية لكن لم تلبث إلا ووافقت بشروط.. بعدما التحقت بالجامعة في بادئ الأمر كان كل شيء جيد حتى بعد مُضي عدّة أشهر، حتى قام أصدقائي بدعوة بعض زملائهم إلى شقتنا.. كان لدى الزملاء الكثير من التجارب التي كُنت أراها غير قانونية.. لم يخطر على عقلي أني قد أجربها في يومٍ ما، شغف المغامرة جذب بعضًا منا ليُحضروها إلى الشقة وليتسنّى لنا تجربتها.. بعد أيام قليلة أحضروا كميات لا بأس بها من المخدرات ولم يأخذوا نقودًا تلك المرة بل قالوا إن المرة الأولى هي عربون صداقة بيننا فأخذها أصدقائي.. وبدؤوا بتجربتها في حين رفضت ذلك بالبداية، وكنت أتذكر وصايا أمي لي لكنهم أرغموني ونعتوني بالخوف الشديد كالفتيات، وبأني كيْ أُصبح رجلاً يجب أن أقوم بتجربة كل شيء ومن ثمّ أقوم بالحُكم عليه لاحقاً أأُواصل عليه أم أتوقف عنه، فبدأت الفكرة تتسلّل إلى رأسي المليء بالمواعظ والحكم التي كانت تُحذر حتى من تجربة المخدرات لكن الفكرة كانت أقوى من كل ما سبق، بالإضافة إلى ضغط أصدقائي عليّ واستهزائهم المتواصل بي طيلة السهرة.

التجربة الأولى لا أخفيك بأنها كانت مختلفة.. أحسست بالنشوة، يومًا بعد يوم بدأت أتعاطى أكثر من أصدقائي الذين ازدادت حاجتهم إلى جرعات أكبر وإلى تنوّع أكثر، ليخبرنا زملائنا أن مصادرهم المجانية توقفت وأنه من بعد الآن يجب أن يتقاضوا المال

لنحصل على المزيد، بالطبع بعد أن اعتدنا عليها وفقدان أعصابنا دونها وتحكمها في مزاجنا بشكل جلي فبدأنا جمع الأموال نيتم تزويدنا بما نُريد، وفي كل مرة يضيفون لنا صنفاً جديدًا كهدية بغرض التجربة ولندفع أموالاً أكثر في المرة القادمة.. كل ما تقدّم بنا الوقت زاد إهمالنا لدراستنا التي تحتاج لمجهود وفير وتركيز مضاعف.. لكن تفكيرنا كان مُنصباً حول كيفية جمع الأموال واختيار الأصناف التي كانت ترُوقنا مما أدّى إلى تعثّر متتالٍ في مستوياتنا الدراسية والحصول على الحرمان في كثير من المواد نظير التغيّب عن الحضور.. وبعد أن وصلتُ إلى مراحل متقدمة من الإدمان بدأت تراودني أفكار غريبة وأوامر بارتكاب الأخطاء استجبت لبعضها بعد قناعة تامة، ثم بدأت أسمع أصواتًا لا يسمعها غيري.. كانت تشتمني وتوبخني وأبادر بالرد عليها.

- هل تأتيك تخيلات وأصوات بوجود أحد زملائك في الغرفة؟

- لا إطلاقًا؛ كنت أراهم في خلوتي مع نفسي، ليتطور الأمر إلى الشك في وجود مؤامرة ضدي من أصدقائي.. لم أعُد أتناول الطعام معهم بالتحديد الذي يُعِدونه بأنفسهم كما هو الحال مع أمي.. سقطت في قاع الظنون العظيم - حول إمكانية دسّ السم لي في الطعام من أحد معارفيّ؛ وإن لم يكن يعرفني فلا قلق منه، كالمطاعم وغيرها -، هل تريد أن أحدّثك بالمزيد؟

- أجل!

- كان في جامعتنا مُحاضِرة تقوم بتدريسنا بعض المواد وأثناء تركيزي في شرحها تأتيني فكرة أنني المقصود بكلامها.. ليتطور بي الأمر حتى وصل إلى اعتدائي عليها بالضرب في نصف المحاضرة بعد أن كانت تتحدث عن تشريح الجسم البشري.. غلبتني فكرة أن اسمي مذكور خلال شرحها.. غادرت الكرسي، تقدمت نحوها في حين كانت تطلب مني الرجوع إلى مكاني وعدم النهوض مرة أخرى دون إذن منها لتُكمِل شرحها قبل أن ينتهي الوقت المخصص لمحاضرتها، تجاهلتها وما إن وصلت إليها حتى لكمت وجهها لكمة لينكسر منها فكّها وأبرحتها ضربًا وأنا أصرخ بكلامٍ لا أدركه، لم أتركها حتى دفعني عنها أحد الزملاء في القاعة وليأتي أمن الجامعة ويصطحبني إلى الإدارة التي قرّرت فصلي النهائي، لم أُخبر أمي لخوفي عليها «وبكى!»

قام «فيصل» بتهدئته ومدّ إليه بعض المناديل ليمسح دموعه.

- ما قصة حفر أرض الحديقة؟

- عُدت إلى الديار ولم أحتمل نظرات الناس إليّ وكأنهم جميعًا قد علموا بما أصابني.. لأتجنب الخروج من المنزل إلا للضرورة.. كان جارنا ينظر إليّ باشمئزاز.. كنت أحاول تجاهله قدر الإمكان حتى حضرتني فكرة ذات ليلة أنه قام بتدبير عمل سحري لي عند إحدى المشعوذات وقد قام بدفنه في حديقة منزلنا، مما أغضبني فاتجهت

إلى منزله حتى أضربه لولا أن أوقفتني والدتي.. منذ ذاك الحين وأنا أفكر في حال عثوري على القنينة المدفونة سأملك دليلًا قويًا ضده وسأجعل أمي تصدقني وتسمح لي بضربه.

بدأت الحفر في الساعات المتأخرة من الليل حتى لا يراني أحد وحتى أذان الفجر تواصل حفري لعدة أسابيع على نفس المنوال دون فائدة تُذكر لكنّي لم أتعب ولن أتوقف.

- هل تتعاطى هذه الفترة؟

- إطلاقًا!

- وبعد أن ألحّ «فيصل» بدأ يضعف أكثر.. ليخبره أن لديه صديق يَمُدّه ببعضٍ منها في فتراتٍ متقطعة وبكميات قليلة لا تقارن بالسابقة.

- حدّثني عن الأفكار التي تراودك؟ هل تتبع تناولك للمخدرات؟

- أجل!

- هل تريد أن تتماثل للشفاء؟ أم الاستمرار على حالك؟

- أريد بالطبع؛ لكنني لا أرغب العيش في مصحة بين المدمنين..

- في حال تعالجت ستتوقف الأعراض النفسية عن التفاقم وربما تتوقف إلى الأبد ولكن في حال استمرارك على التعاطي فإن الأعراض لن تترك زيارتك وربما تصل إلى حالٍ لا يمكن لأحدٍ إنقاذك منها.

اقتنع بحديث الطبيب والذي كان يُحادثه وكأنه مسؤولٌ عنه أخٌ كبيرٌ له.. لكنه اشترط أن يُخفي على والدته ما يخص إدمانه، ولا يشرح لها أسباب أعراضه النفسية.. ليتلقى الموافقة من فيصل بشرط أن يداوم على علاجه وألا يتأخر عن مواعيد زياراته الدورية.

- الآن قم بفتح الباب واطلب من والدتك الدخول والانضمام إلينا من جديد.

دخلت الأم وهي متوجسة حول أي خطأ قد ارتكبه ابنها مع الطبيب أثناء حديثهما.. فأخبرها الطبيب أنه سيباشر حالة ابنها بالعلاج وألا تتردد في إخباره في حال تخلّفَ عن تناول أدويته أو رجع إلى تصرفاته المريبة لاحقاً.

«إننا على وفاق يا والدتي؛ لا تقلقي».. فنظرت إلى ولدها في فرح شديد وقالت: أذلك صحيح؟

- أجل.

- أعدك أن أخبرك بكل ما يفعله بالتفصيل أيها الطبيب!

- أرجو أن ترحم أرضية الحديقة وأن تتركها في شأنها.. (قال الطبيب).. ضحك الشاب وقال: «سأفعل ما تطلبه بالتأكيد».

بدأت عطلة نهاية الأسبوع، تلقى «فيصل» مكالمة من «زياد» يدعوه فيها إلى منزله ليرى مولوده الجديد مساء اليوم وليتناولا طعام العشاء معًا؛ فأجاب دعوته من غير تردد.. بعد دخوله صالة

الاستقبال جلس قليلاً.. حتى أتى زياد يحمل ابنه بين يديه، ناوله إيّاه وبدأ «فيصل» في تقبيله ومازحة والده: «لا يشبهك إطلاقًا».

بعد تناول العشاء بدأ فيصل في سرد قصة «ضيْ» من بدايتها وحتى النهاية على صديقه الذي بدا مُتلهفاً لمعرفة ما حدث في النهاية وما نتيجة الأشعة.

بعد إخباره بكامل القصة وبنتيجة الأشعة بدآ في جمع وتحليل الأعراض واستبعاد ما لا يتوافق من تشخيص معها، استمرا الأكثر من ساعة حتى ضرب زياد رأسه بشكل مفاجئ بعد صمتٍ طويل وتفكير؛ قائلاً: «يبدو أنني وجدتها».

- ماذا؟

- من الممكن أنها تُعاني من اضطراب يُدعى بـ «اضطراب الأعراض الجسدية» والأعراض التي تواجهها ما هي إلا اضطرابات نفسية قد تكون السبب الرئيس فيما حدث لها.

أخذا في مطابقة الأعراض ووجدا أن شروط «اضطراب الأعراض الجسدية» تتوافق مع ما تمر بهِ.. عدا التأكد من خلوها من أي تشخيص طبي آخر قد يُحدِث خطأً في تشخيصها.. لم يخطر على عقل

(فيصل) من قبل احتمال إصابتها به.. من شدة فرحه أمسك الهاتف بنية التحدث إليها أو إلى والدها لكنه سرعان ما أدرك تأخر الوقت في اليوم التالي وبعد صلاة الجمعة أجرى اتصاله المؤجل بوالدها ولحسن الحظ أن «ضي» من أجابت عليه.. فأخبرها بحاجتها إلى زيارة المستشفى وعمل عدة فحوصات شاملة ليستطيع الجزم فيما أصابها بدقة.. قبلت الأمر: «حسنًا؛ أنا على أتم الاستعداد لفعل ما تطلبه مني».

بعد أسبوع بالضبط بدأت في إجراء الفحوصات المطلوبة بشكل كامل، لتظهر النتائج في الأسبوع الذي يليه.. اطّلع «فيصل» على ما آلت إليه ليجدها مثلما توقع هو وزياد.

صباح الخميس؛ وفي موعد العيادة المترقب جاءت «ضي» باكرًا.. للاطلاع على نتائج التحاليل التي أُخِذت مسبقًا..
بحماسٍ لا ينقطع أتى الدكتور فيصل مُصطحبًا كوب قهوته معه ومتأخرًا كعادته.. عبر بجوار مقاعد الانتظار التي في طريقه إلى غرفته.. لمح وجهها المشرق ليشعر آن ذاك أنه من هنا ابتدأ يومه..

- صباح الخير.. (قالت)
- صباح النور؛ والدكِ لم يأتي معكِ؟ أتمنى أن يكون بخير؟
- لديه العديد من الاجتماعات..

- ابتسم، وقال: رائع، هذا يعني أن الثقة بين الطبيب ومريضته قد وصلت إلى مرحلة مُرضية كي تحضري في موعدك نوحدك دون أي اعتذار بسبب انشغال أبيكِ.

- حسنًا إن معظم ما تعانين منه هو أعراض نفسية ألمّت بكِ مما دفع جسدكِ على التعبير هكذا لتوهمي بدوركِ بالألم.. وذلك ناتج عن ضغوطات نفسية كثيرة عانيتِ منها بدءًا من إخفاء أمر والدتكِ عنكِ مروراً بملازمتكِ إياها فترة مرضها ومدى تحاملك على نفسك مما أدى إلى الانفجار بعد صدمة وفاتها منذ عامين؛ لتبدأ هذه المشاعر تظهر على شكل آلام متفرقة.. مثل الصداع وآلام البطن وغيرها وهذا ما يُسمّى باضطراب الأعراض الجسدية.

(قاطعته بصوت خائف ومضطرب)..: كيف سأتعالج منها؟ هل علاجها أمر مستحيل؟ هل سأبقى هكذا طيلة حياتي؟

هدّأ من روعها وأطلعها على أهداف العلاج وطريقته وأنه في حال تحقيق الهدف فإن حالتها ستلاحظ تحسنًا وستتخلص من الأعراض بالتدريج..: «سأقوم بترتيب جلستين علاجيتين لكِ في العيادة لعدة أشهر بشرط الالتزام في الحضور وعدم التغيب المُطلق»

- حسنًا «أعدك.. أرغب كثيرًا في التحسن».

بعد دقائق من خروجها أتى الممرض بصحبة أحدهم - من حادثه بخصوص الحفل الكبير -؛ رحّب بهِ وأخبره عن قبوله الدعوة بعد أن تعرّف على موعد الحفل.

بدأت «ضي» الالتزام بالجلسات حتى قلّت أعراضها بشكل تدريجي فعلاً.. أصبحت تنام نومًا هانئًا أفضل من ذي قبل.. وفارقتها العديد من الآلام التي قد لازمتها لعامين.. واستمرت فترة العلاج أكثر من ثمانية أشهر.

عارض أزياء

«منتصف الأسبوع»

بعدما جمع أغراضه لمغادرة الطوارئ بعد مناوبة طويلة أرهقته للغاية.

جاء إليه الممرض المساعد له؛ ضاحكًا: «دكتور فيصل، أحمل لك أخبارًا قد لا تسرك»..

- حسنًا كما توقعت؛ هيا أدخله.

دخل رجُل مُسن؛ يكسو لحيته البياض، جسده هزيل، يدفع كرسيًا متحركًا يجلس عليه طفل صغير ونحيل قد برزت عظام جسده من تحت جلده.. وقد ظهر فكّاه بشكل واضح، يبدو منهكًا ولا يكاد يستطيع تحريك يديه، ليتوقع مُسبقًا ما يعانيه.

- كم عمره؟

- في الثامنة عشر.

- كيف؟ يبدو أصغر من ذلك بكثير.

- ما سبب مجيئكم إلى الطوارئ الآن؟

- ابني منذ عدّة أعوام قد بدأ في الصيام عن الطعام والشراب إلا ما ندر لتتدهور الأمور وينقطع بشكل مفاجئ ونهائي عن الأكل.

- ما نوع الطعام الذي يُقدم إليه؟

- في منزلنا يتم تحضير جميع أنواع الأطعمة التي كان يُفضلها سابقًا

بعدما استمع «فيصل» لكلام الأب التفت إليه وسأله: هل هناك أعراض أخرى تواجهك؟

- الصداع المتواصل والكثير من المشاكل والاغماء المتكرر.

نهض فيصل وأمسك بورقة وبدأ بتعبئتها؛ سأل الشاب: «ما هذه؟»

- تحويل إلى قسم الطوارئ العام حتى يتم تزويدك ببعض المغذيات المحتوية على كثير من المعادن والتي من المؤكد أن جسدك يُعاني فقدانها.

بدأ في البكاء والرفض قائلاً: «لن تضع في جسدي قطرة من المحلول، أعلم أن والدي قد اتفق معك ضدي ليُحبط حلمي الكبير ألا وهو أنْ أُصبح عارض أزياءٍ شهير ويريد منع ذلك وهذا ما لن أسمح به»..

بعد ثوانٍ أتى الممرض يحمل نتائجه، اطّلع «فيصل» عليها ووجّه الحديث إليه: أنت تُعاني من «فقدان الشهية العصابي» وفي حال استمريت في العناد ستدفع بنفسك إلى الموت بسبب حاجة جسدك إلى المعادن والغذاء، أعدك في حال تقبلك العلاج المناسب بالمحافظة على شكل جسدك».

- أتعدني بذلك رغماً عن رغبة أبي؟

- نعم أعدك.

بعدما استمع «فيصل» لكلام الأب التفت إليه وسأله: هل هناك أعراض أخرى تواجهك؟

- الصداع المتواصل والكثير من المشاكل والاغماء المتكرر.

نهض فيصل وأمسك بورقة وبدأ بتعبئتها؛ سأل الشاب: «ما هذه؟»

- تحويل إلى قسم الطوارئ العام حتى يتم تزويدك ببعض المغذيات المحتوية على كثير من المعادن والتي من المؤكد أن جسدك يُعاني فقدانها.

بدأ في البكاء والرفض قائلاً: «لن تضع في جسدي قطرة من المحلول، أعلم أن والدي قد اتفق معك ضدي ليُحبط حلمي الكبير ألا وهو أنْ أُصبح عارض أزياءٍ شهير ويريد منع ذلك وهذا ما لن أسمح به»..

بعد ثوانٍ أتى الممرض يحمل نتائجه، اطّلع «فيصل» عليها ووجّه الحديث إليه: أنت تُعاني من «فقدان الشهية العصابي» وفي حال استمريت في العناد ستدفع بنفسك إلى الموت بسبب حاجة جسدك إلى المعادن والغذاء، أعدك في حال تلقيك العلاج المناسب بالمحافظة على شكل جسدك».

- أتعدني بذلك رغماً عن رغبة أبي؟

- نعم أعدك.

- حسنًا.. سأُجرّب ذلك.

- تحتاج إلى العناية السريرية هذه الفترة حتى تستقر حالتك وبعدها سنبدأ العلاج الأسري والسلوكي لتُنير بصيرتك تجاه ما تجهله عن المرض.. وأتمنى لك الشفاء العاجل.

في الشهر التاسع من فترة علاج ضي، وصلتها دعوتان لحضور المؤتمر الذي سيتحدث فيه فيصل بشكل رسمي.. تبقى يومان فقط، والتي بدأت فورًا في استعداداتها له.

اصطحب فيصل والدته وأخاه رائد إلى قاعة الحفل.. وقد تأنّق بشكلٍ مُلفِت.. تجاوز عدد الحضور الألفين، الضوء مُسلّط على المسرح.. المقبلون في ازدياد والمقاعد أوشكت الامتلاء.. لم يكُن يشعر بالقلق إطلاقًا على الرغم مما هو عازمٌ على فعله.. يراقب ساعته باستمرار لكنه ما لبث إلا وهدأ بعدما لمح «ضي ووالدها» مُقبلَيْن تجاهه فعلَت الابتسامة وجهه.. رحّب بهما واصطحبهما إلى المقاعد المجاورة لوالدته ورائد الذي همس لفيصل فور رؤيته ضي: «إذًا هذه مريضتك؟ وجهها مشرق أكثر من وجهي، تبدو بكامل صحتها».. ليقابله بالضحك الذي قطعه صوت «زياد» المهتم والقلق أكثر من فيصل ليسحبه من يده مُتحدثاً معه على انفراد:

- «هل أنت واثق مما تنوي فعله؟».

- أجل.

- ما ترتيبك بين المتحدثين؟

- الأخير.

- كعادتك دائمًا يبدو أنهم علموا بترتيبك في الجامعة (قالها ضاحكًا) ثم أردف قائلًا: ستكون مثلما تريد وأفضل «مُطبطبًا على كتفه».

اكتمل عدد الحضور.. لتبدأ الخُطب والكلمات الرائعة في التتالي وليستمع الجميع، كان لدى الأغلبية تجارب ملهمة ومحفزة.. جاء دور المتحدث الذي يسبق فيصل ليجد الحفاوة والتصفيق.

أخذ استعداداته للظهور من خلف الستار.. ثوانٍ قليلة حتى أصبح فيصل وسط تصفيق حار في المكان المخصص للمُتحدثين.. توقف التصفيق وعمّ الهدوء المكان.. ليبدأ قائلاً:

أهلًا بالجميع؛ أُعرّفكم بنفسي (أنا الدكتور فيصل مختص في الطب النفسي وأزاول العمل في مجال دراستي).. أحببتُ تخصصي لأنه يُخاطب العقل البشري ويُبحر في خفاياه، اخترته رغمًا عن جميع الذين ظنوا أنه سيكون سببًا في ضياعي وجنوني تأثرًا بمن أعالجهم وأختلط بهم بشكل يومي.. - لم أُبالي كوني اخترت ما أريده أنا لا ما يرغبه الآخرون - مع مرور الأيام بدأت بالتأكد من صواب اختياري وأحمد الله أنني اتخذت كلماتهم السلبية جسرًا للوصول إلى غاياتي.. حسنًا؛ سأُطلِعكم على سرٍ صغير؟ غالبية من انتقدني وقتما

اختزت تخصصي أصبح يُتابع حالته في عيادتي لاحقًا، ليس عيبا أن نزور طبيبًا نفسيًا، العيب هو استنقاص ما نجهله..

لدي الكثير من التجارب، رأيت العديد من المرضى، اكتسب خبرة وافرة.. وأعرف أن لديكم شغفًا للاستماع لبعض القصص والمواقف لكنني فضلت أن يكون الأمر مختلفًا.. سأدعُ أحد مراجعي العيادة يتحدث لكم عن تجربته بدلًا عني.. لأن وصفه وشعوره سيكون أصدق وأعمق مني.. هو بيننا الآن لكنه لا يعلم أن اختياري قد وقع عليه.

أشار بيده إلى (ضيْ) بالتحديد من بين الحضور، وقال: «أتمنى من ضيْ تقبّل دعوتي للصعود إلى المسرح لتُخبركم تفاصيل تجربتها بأريحية تامة»

دُهِشت بشدة، حثّها والدها (الذي كان يعلم مُسبقاً بنوايا فيصل) على النهوض.. ارتجلت من مقعدها والهدوء قاتمٌ من حولها.. تجاوزت أقدامًا كثيرة ممن يجاورها في صف الكراسي.. وصلت نهاية الممر الضيق لتبدأ في السير نحو الدرج، صعدت العتبات واحدة تلو الأخرى حتى اقتربت منه ووقفت بموازاته، فقال لها هامسًا: «أليست أمنيتكِ أن تعتلي خشبة المسرح؟ قومي بتحقيقها الآن».. وتركها وحيدة على الخشبة أمام الجميع.

الأضواء مُسلّطة عليها، العيون تُراقبها، الآذان تتشوق لسماعها، الجميع مستعدون.. بدأ جسدها في الارتجاف وعيناها تنظران إلى قدميْها.. الصمت طاغٍ على المكان: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ أنا ضي..»

سكتت لوهلة تُراقب قلبها الذي يخفق بشدة.. «زُرتُ العديد من العيادات النفسية في الآونة الأخيرة، قابلتُ الكثير من المصابين بأمراض نفسية أو اضطرابات مختلفة كان منها الهيّن الذي يزول وآخر مُزمنٌ يستمر إلى الأبد.. لم أكُن طبيبة ولم أعمل في المجال الصحي حتى.. وهذا ما أعطاني نظرة مختلفة عنهم تجاه المرضى، كنت أستغل أوقات انتظاري في استقبال العيادات في التحدث مع العديد منهم.. وأوجّه الأسئلة المختلفة لكشف أسبار هذا البحر الغامض، ذات مرةٍ التقيت رجلًا في العيادة، طلبتُ منه التحدث إليّ عن مرضه فقال:

«ما معنى أن تعيش في جسدٍ لا تملكه؟

أن تملك عقلًا في رأسك لكنك لا تستطيع التحكم به؟

أن تسمع أصواتًا دون سِواك؟

أن ترى ما لا يراه غيرك؟

أن تعيش معزولاً وخائفًا رغم أنك تكره الوحدة؟

أن تخاف الناس وتتجنّبهم؟

أن تسقط في بئرٍ من الأفكار ولا قدرة لكَ على التخلّص منه؟

أن تُصبح عديم الفائدة؟
لحظة؛ هل أنا مجنون؟»

وأنهى حديثه الذي فتح بابًا للتفكّر في عقلي.
في زيارتي الأولى لعيادة الدكتور فيصل أخبرته أنّي لستُ مجنونة بما أن وظيفته تنصبُّ على مُداواة المجانين.. أجل؛ لقد كانت رؤيتي للمريض النفسي لا تختلف عن الذين ذكرهم في كلمته، كُنت دائمًا انظر إلى السطح ولا أعلم ما الذي يحمله القاع.. أُصبت باضطرابٍ نفسي ولم أفقد عقلي حتى بعدما سيطرت عليّ الأوهام التي تمكنتُ لاحقًا من التخلص منها، أخطأت تسميتهم عندما كنت غريبة عنهم وبعدما أصبحت منهم عرفتُ ما معنى أن تكون مريضًا نفسيًا.. لا تعلمون ما معنى أن يُصاب أحدهم بمرض مجهول لعامين.. لا تعلمون ما الذي يمر بهِ وما الذي يكافحه للحفاظ على ثباته حتى لا يشعر بالحاجة إلى الاستناد على أحد.. لا تعرفون ما معنى أن يتجنبك أعز أصدقائك وأنت في أمسّ حاجتك إلى وقوفهم بجوارك.. كُنت كالذي يعيش أحداث فيلم سينمائي غامضة.. يُسيطر عليّ التيْه لكنني لا أُريد الرجوع إلى أرضٍ لا أعرفها.. تُريد في الحقيقة لكنك تخاف.. تظن أنك على صواب ولكنك على يقين أنكَ مُخطئ.. تنهار من الداخل مائة مرة لكنك تُمثّل التماسك.. لا زلتُ حتى الآن أتذكر ما عايشته لحظة معرفة ما أعانيه.. اختلطت

مشاعري لقد أدخلت نفسي في قفص مصنوع من الخوف والقلق، حرمتُ نفسي حرية العيش خلال تلك الفترة.. لقد مرضتُ بلا مرض!

الآن تغيّر الكثير.. أشعر بالفرق؛ جسدي كان يُخرج ضغوطاته النفسية عن طريق تألمي، يظهر الألم الوهمي في رأسي أو بطني.. عانيتُ حتى تعلمت.. أستطيع الآن الغوص في أعماقي والتعبير عن ألمي النفسي بصورة واضحة وخالية من الزيف.. عقدتُ العزم على الخلاص وتمكنتُ منه.. هل تريدون معرفة متى ينتهي المرض؟

- حينما ندركه نتمكن من معالجته - لأقف أمامكم الآن سليمةً معافاة .. واستسلمت لدموعها الغزيرة.

ازدحم المكان بالتصفيق تشجيعًا وتأييدًا لها.. استمرّ فيصل في التصفيق فخرًا بما استطاع الوصول إليه بعد عدّة أشهر من الصبر والتعب.. خالجه شعورٌ عظيم وكأنما وُلِد من جديد.

مراجعة طبية :

د. أحمد مأمون رجب

Twitter : @maamunr

د. ديمة عتيق العتيق

Twitter : @Deemah_atq

د. محمد صدقي إبراهيم

E-mail : mohsedkypsych@yahoo.com

د. عبدالرحمن أكمل أحمد

Twitter : m091ny

د. جهاد أحمد الشبعان

E-mail : j-do@hotmail.com

مراجعة إملائية ولغوية :

أريج الصالح

E-mail : 3reej7@gmail.com

Twitter : 56_twilight

تصميم الغلاف :

خالد العتيبي

Twitter : ktashkeell

رسم صورة الغلاف :

ريم القحطاني

Instagram : 34obh_art

تنسيق كلمات صورة الغلاف :

حليم الشعيبي

Instagram : halim.alshaibi

صورة الغلاف الخلفي :

علي البويدي

Instagram : alibuwaydi

الفهرس

الموضوع	الصفحة
شتائم	٩
ليس من شأنك!	١٥
خائف	٢٠
الخميس المُنتظر	٢٣
إخوة يوسف	٣٦
صلّيتُ في المسجد الأقصى	٤٤
همزات الشياطين	٦٤
خيانة	٧٠
شك	٧٨
انتقام	٨٢
أنا السبب	٩٠
غبار على الطاولة	٩٧
سقطتُ على إصبعي	١٠٧
أنا لستُ هنا	١١٩
امرأة في المرآة	١٣٢
سحرٌ في حديقتنا	١٤٤
عارض أزياء	١٥٨

مرضتُ بلا مرض

قال :

" ما معنى أن تعيش في جسدٍ لا تملكه ؟

أن تملك عقلاً في رأسك لكنك لا تستطيع التحكم به ؟

أن تسمع أصواتًا دون سواك ؟

أن ترى ما لا يراه غيرك ؟

أن تعيش معزولاً وخائفًا رغم أنك تكره الوحدة ؟

أن تخاف الناس وتنجذبهم ؟

أن تسقط في بئرٍ من الأفكار ولا قدرة لك على التخلص منه ؟

أن تُصبح عديم الفائدة ؟

لحظة ؛ هل أنا مجنون ؟ "

د. أحمد الشويخ

a7_sh

A7mad7

A7madsh

تشكيل TASHKEEL

Tashkeell